تضجع قيس
في ضوء علم اللغة الحديث

أ.د. علي سيد أحمد جعفر

في أثناء قيامي بتدريس مادة (أصول اللغة) لطلاب السنة الأولى بالدراسات العليا، قسم اللغويات في كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر بالمنوفية، عام٢٠٠٠/٢٠٠١م، اخترت لهم من كتاب (لهجات العرب) للمرحوم / أحمد تيمور، طبعة ١٩٧٣م بعض الموضوعات التي كان منها موضوع بحثنا هذا، وعنوانه: التضجع " إمالة الحرف إلى الكسر" وجاء البحث عن هذا الموضوع ضمن الكتاب المذكور في صفحة واحدة (ص١٢٨)، كالتالي:

التضجع

إمالة الحرف إلى الكسر

- (في موارد البصائر: ٢٦٥) ذكره لقيس ولم يفسره.
- وكذلك في (المزهر ١/١٠٤)، ولم يفسره.
- وفي (القاموس): والإضجاع في القوافي كالإكفاء أو كالإقواء، وفي الحركات كالإمالة والخفض .
- وفي (شرح القاموس) يقال: أضجع أي: أمال الكسر .
- وفي (خزانة البغدادي ٤/٤٩٦): ذكره لقيس ولم يفسره.

الإصدار الأول

رجب ١٤٣٤هـ
مايو ٢٠١٣م

وهكذا كانت المعلومات الواردة عنه مجرد ومضات أو إشارات خاطفة، اعتبرتُها بمثابة مفاتيح للدخول إلى قاعة البحث والتنقيب في المظان اللغوية عن هذه الظاهرة اللهجية، وقلت في نفسي: ما المانع أن يكون ذلك في بحث - ولو جاء صغيرا - يقفنا على حقيقة هذا الموضوع، ويفسر لنا ذلك الغموض الذي يكتنفه، حبذا لو بُحِث في ضوء معطيات الدرس الصوتي واللهجي من علم اللغة الحديث.

ويمر كثير منا - نحن المتخصصين في أصول اللغة (علم اللغة) - بهذا المصطلح الصوتي اللهجي عند الحديث عن فصاحة قريش وأهلها، تلك اللهجة التي نزل القرآن الكريم بها في غالب أمره، أو عند الحديث عن اللهجات المذمومة أو الرديئة أو غير الفصيحة أو ما دون لهجة قريش عموما.

أقول: يمر كثير منا بهذا المصطلح دون أن يلفت أنظارهم أو يتوقفوا عنده أو يتلبثوا به كثيرا لسبب أو لآخر.. اللهم إلا ما كان من خبيري مجمع اللغة العربية بالقاهرة: الأستاذ / بخاطره الشافعي، والدكتور/ عبد الصبور شاهين الذيْن كتبا بحثا يحمل نفس العنوان، (تضجع قيس) وهو بحث تأصيلي مُوَثَّق، يحمل نصوصا كثيرة في غالبه منسوبة إلى مصادرها الأصلية، أكثر من بحث مُفَلْسَف[1]. وقد ألقي هذا البحث في المجمع سنة ١٩٧٥م.

(١) ألقي هذا البحث في الدورة الخامسة والأربعين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعرض الخبيران المذكوران فيه طائفة من المصطلحات اللهجية عند القدماء.
انظر مجمع اللغة العربية في خمسين عاما، ص ١١٦. =

ثم ما كان من الزميل الدكتور / حسن سيد فرغلي في كتابه (المستويات اللغوية في لهجة قيس)، وقد ظهر سنة ٢٠٠/م وخصص تضجع قيس في صفحتين اثنتيْن.

هذا، وتفسير الغامض، أو شرح المستغلِق أحد وجوه التأليف المعتدِّ بها.

قال شمس الدين البابلي (ت ١٠٧٧ه) لا يؤلف أحد كتابا إلا في أحد أقسام سبعة، لا يمكن التأليف في غيرها وهي:

١- إما أن يؤلف في شيء لم يُسبق إليه يخترعه.

٢- أو شيء ناقص يُتِمُّه.

٣- أو شيء مستغلِق يشرحه.

٤- أو شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء في معانيه.

٥- أو شيء مختلِط يرتّبه.

٦- أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبيِّنه.

٧- أو شيء مُفَرَّق يجمعه.

وموضوعنا من الصنف الثالث، حيث الظاهرة مستغلِقة نحاول شرحها بإذن الله.

= ثم نشر البحث بكامله في كتاب المجمع (اللهجات العربية .. بحوث ودراسات) تحت عنوان"المصطلحات اللغوية في اللهجات العربية القديمة) ص ٢٠٥-٢٣٠، وخُصَّ (التضجع) منها بخمس صفحات فقط (ص ٢٢٦-٢٣٠).

جغرافية شبه جزيرة العرب، وأهم قبائلها

ينبغي لمن يتصدى للبحث في اللهجات العربية أن يعرف مواطن القبائل العربية وانتقالها وجيرانها وشركاءها في هذه المواطن التي تحتلها، حتى يتسنى له أن يعرف مدى تأثر هذه اللهجات بعضها ببعض. فدراسة القبيلة تاريخيا وجغرافيا ليس غاية تقصد لذاتها في بحث لغوي كهذا البحث، ولكنها وسيلة مهمة في إلقاء الضوء على جوانب الموضوع وتحقيقه تحقيقا علميا يؤدي بالدارس إلى النتيجة التي يهدف إليها من وراء هذا البحث[١].

وقد ذهب بعض الجغرافيين العرب إلى تقسيم شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام رئيسية وهي: الحجاز، وتهامة، ونجد، والعروض، واليمن[٢].

كما قسم بعض النسابين العرب إلى طبقتين رئيسيتين هما:

أ- العرب البائدة ب- العرب الباقية

ثم يقسمون العرب الباقية إلى طائفتين ، هما:

---

(١) لغة هذيل (١٩).

(٢) اعتمدتُّ في هذا التقسيم مُلَخَّصا على ما جاء في بداية كتاب (اللهجات العربية في كتاب سيبويه ١٨-٦٦) ؛ لأن صاحب الكتاب وثق معلوماته من الصادر المطلوبة التي راجعها شيخ جغرافيي الجزيرة العربية المُحْدَثين: حمد الجاسر، صاحب (المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية)، وأهل مكة أدرى بشعابها كما يقولون.

وراجع كذلك: العرب قبل الإسلام (٩-١٥)، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١ (١٦٧-١٨٥).

١- العرب العاربة (القحطانية أو الجنوبية).

٢- العرب المستعربة (العدنانية أو الشمالية).

أ- العرب البائدة :

هم الذين بادت حياتهم وحضارتهم عن طريق الإهلاك الجماعي لهم ولقراهم في القديم، مثل قبائل عاد، التي كانت تسكن في جنوبي الجزيرة العربية[٣] ولحيان، وثمود، والصفويين وكانوا يسكنون شمال الحجاز بالقرب من الحدود الآرامية، ولا سيما في واحات: تيماء، والحجر (مدائن صالح)، ومنطقة العلا.

وقد وصلتنا لهجاتهم عن طريق بعض النقوش المكتشفة في المناطق السابقة، في مساحات ممتدة من دمشق إلى منطقة العلا، لاسيما في واحتي الحجر وتيماء[٤].

كذلك من أشهر القبائل التي بادت قبيلتا: طَسْم، وجَدِيس، اللتان كانتا في منطقة اليمامة من وسط بلاد العرب[٥].

ويوضح الدكتور/ محمد بيومي مهران- وهو من المتخصصين في تاريخ العرب القديم- هذا الأمر بقوله:

وربما كان المقصود بلفظة (بائد) عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى هذه القبيلة أو تلك عند كتابة المؤرخين الإسلاميين لتاريخ ما بعد الإسلام.

(٣) اللهجات العربية نشأة وتطورا / ٨١

(٤) العربية خصائصها وسماتها: ١٥٨-١٥٩

(٥) العرب قبل الإسلام ص ١٣

وتتمثل العرب البائدة لدى المؤرخين في قبائل: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وعبيل، والعماليق أو العمالقة، وحضوراء، ومَدْيَنَ أو المدينيين، والصَّفَويين[٦].

ب – العرب الباقية :

هم الذين استمرت حياتهم وحضارتهم إلى اليوم، وهم قسمان:

١- العرب العاربة :

هم القحطانيون، نسبة إلى قحطان.

واختلف في نسب قحطان هذا، فهناك من نسبه إلى هود -عليه السلام-، ومنهم من نسبه إلى سام بن نوح. وقد نسل قحطان: يعرب، وخلَّف يعربُ يشجب، وأنجب يشجب: سبأ، وولد لسبأ عدد من الأولاد، منهم حمير وكهلان، ومنهم تفرعت القبائل والبطون، وكانت منازلهم باليمن، في موضع يقال له حِمْيَر، غرب صنعاء، يقول المسعودي وإنما العقب من ولد هذين، ويقول ابن حزم: وفيهما العدد والجمهرة[٧].

يقول الدكتور/ مهران: أما العرب الباقية.. فلعلنا نعني بهم: تلك الجماعات التي كانت – وما تزال – تعيش في هذه المنطقة، وسوف تعيش إن شاء الله إلى أن يغير الله الأرض غير الأرض، وإن حضارتها

(٦) انظر: دراسات في تاريخ العرب القديم (١٥٥-١٩٥).
وراجع- كذلك- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٢٩٨-٣٥٣).

(٧) اللهجات العربية في الكتاب لسيبويه (٣٥-٣٦)، بتصرف يسير، نقلا عن مصادر قديمة

مستمرة يتوارثها جيل بعد جيل، وإن كل جيل يضيف إليها، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويتكونون من بني يعرب بن قحطان، وبني معد بن عدنان[٨].

وقد نَقَلَ إلينا العربيةَ الباقيةَ عن طريق بقايا الناس الذين بقوا فلم يبيدوا مع العرب البائدة، وكانوا يحملون لغة الآباء[٩].

هذا ونقتصر - في عجالة - على ذكر القبائل والبطون المشهورة من هذين الفرعين:

الفرع الأول : حِمْيَر.

تفرع من حمير عدةُ قبائل، من أشهرها: قضاعة التي كانت بلادها متصلة ببلاد الشام.

وقد تفرع من قضاعة بطون عدة منها:

١- بَلِيّ ٢- جُهينة ٣- عَذْرَة ٤- كلب ٥- بنو الْقَيْن ٦- بَهْراء ٧- تَنُوخ ٨- مَهْرَة.

الفرع الثاني : كهلان.

وقد تفرعت من كهلان عدة قبائل، من أشهرها:

١- كِنْدَة ٢- هَمْدان ٣- مَذْحِج ٤- بَجيلة ٥- الأزد ٦- طيِّئ ٧- جُذام ٨- لَخْم ٩- أنْمار، التي كان من أشهر بطونها خَثْعَم.

وهاكم شجرةً تضم القبائل القحطانية التي سبق ذكرها مجملة[١٠]:

(٨) دراسات في تاريخ العرب القديم (١٥٦).

(٩) اللهجات العربية نشأة وتطورا (٨١).

(١٠) اللهجات في الكتاب لسيبويه ٤٣-٥٠ ملخصا.

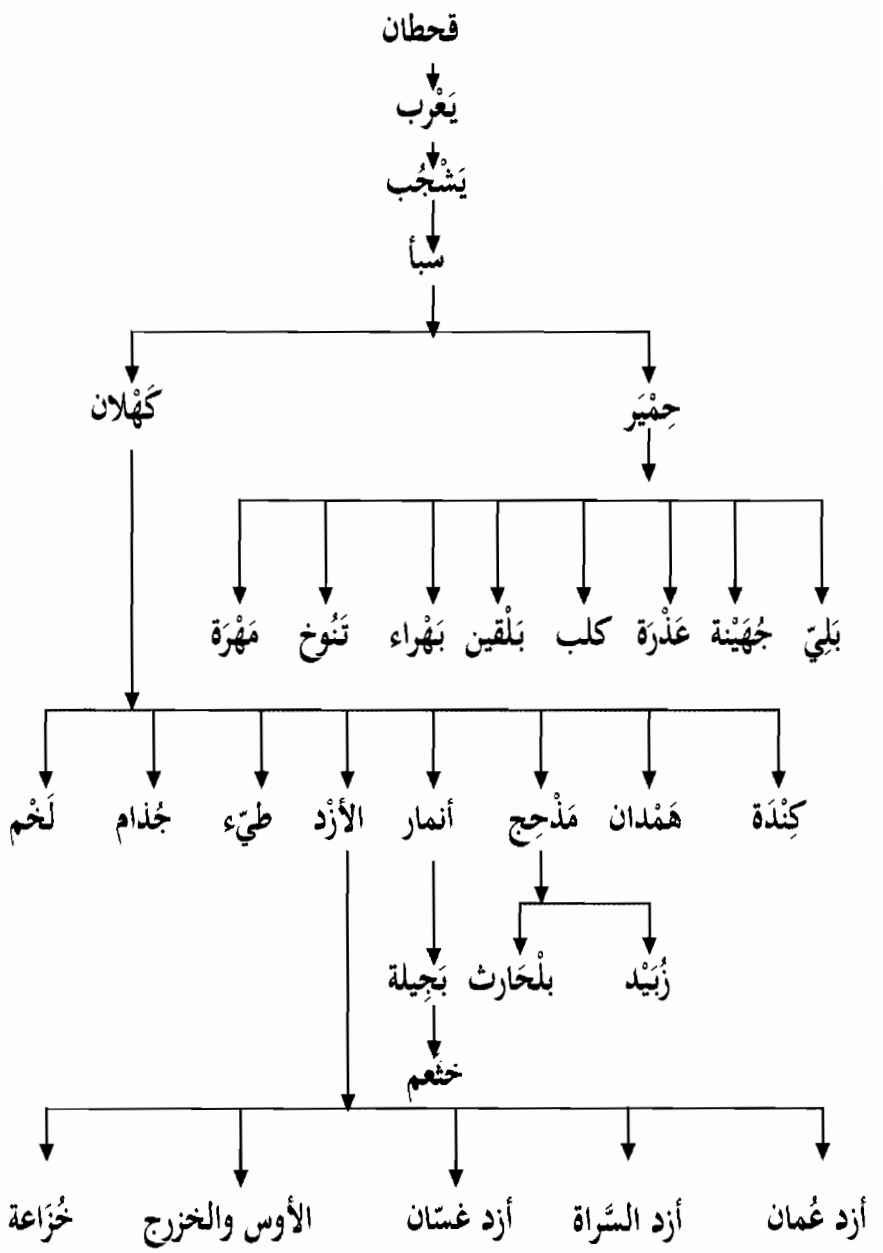
قحطان
يَعْرب
يَشْجُب
سبأ
حِمْيَر
كَهْلان
بَلِيّ جُهَيْنة عَذْرَة كلب بَلْقين بَهْراء تَنُوخ مَهْرَة
كِنْدَة هَمْدان مَذْحِج أنمار الأزْد طيّء جُذام لَخْم
زُبَيْد بلْحَارث بَجِيلة
خثعم
أزد عُمان أزد السَّراة أزد غسّان الأوس والخزرج خُزَاعة

٢- العرب المُسْتَعْرِبة :

هم العدنانيون: وقد اتفق المؤرخون على أنهم من ولد عدنان، الذي يرجع إلى نسبه إلى إسماعيل عليه السلام.

ويذكر النسبون أنه ولد لعدنان، معد، وعك، وولد لمعد:نزار، وولد لنزار ولد منه: مضر، وربيعة، ومنه تفرعت القبائل والبطون العدنانية، تماما كما تفرعت عن حمير وكهلان القبائل والبطون القحطانية.

الفرع الأول : مُضَر

انقسمت مضر إلى قسمين عظيمين هما: خِنْدِف، وقَيْسُ عَيْلَان.

فخندف: وَلَدَ إلياسَ بنَ مُضَرَ، وهي قبائل عدة منها: تميم، والرِّباب، وهذيل، وكِنانة، وقريش.

أما قيس عيلان، فهو: الناسُّ بن مُضَر (بتشديد السين) ، وسيأتي.

وقيس عيلان قبائل عدة، منها:

١- ثقِيف، وكانت ديارهم بالطائف.

٢-هوازن: وكانت ديارهم في السَّرَوات المتصلة بسروات هذيل، وبالتالي يقع جزء كبير منها في نجد.

ومن هوازن: بنو سعد الذين كان الرسول -ﷺ- رضيعا فيهم، وكانوا بنجد شرق مكة(١١).

٣- سُليم: وكانت ديارهم في المنطقة التي تسمى عالية نجد قُرْب المدينة.

٤- غَطَفان: ومن أشهر فروعها: عبس، وذبيان، وفزارة.

٥- غَنِيّ: وكانت ديارهم فيما بين طئ وأسد.

الفرع الثاني: رَبيعة

كانت منازل ربيعة ما بين الجزيرة والعراق، وقد تفرعت هذه القبيلة الكبيرة إثر الحروب التي نشبت بين أبنائها في أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة العربية، ومن أشهر قبائلها:

١-أسد. ومن أشهر بطونهم:بنو دُبَيْرٍ ، وبنو فَقْعَس.

٢- وائل. ومن أشهر بطونهم: بكر بن وائل، وتغلب.

وهاكم شجرة تضم القبائل العدنانية التي سبق ذكرها مجملة.

(١١) اللهجات العربية في التراث (١/ ٤٥).

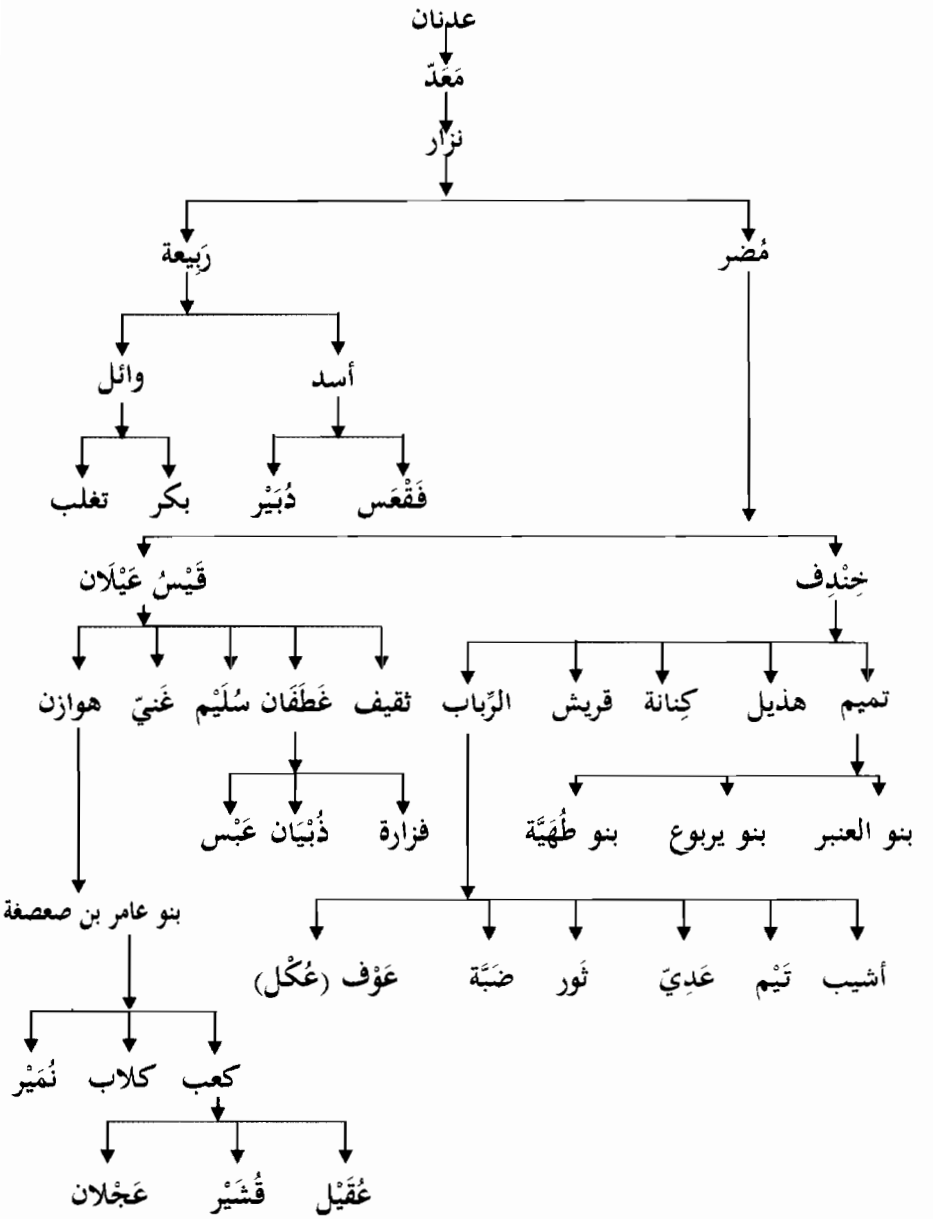
عدنان
مَعَدّ
نزار
مُضر
رَبيعة
أسد
وائل
فَقْعَس
دُبَيْر
بكر
تغلب
خِنْدِف
قَيْسُ عَيْلَان
تميم
هذيل
كِنانة
قريش
الرِّباب
ثقيف
غَطَفَان
سُلَيْم
غَنيّ
هوازن
بنو العنبر
بنو يربوع
بنو طُهَيَّة
فزارة
ذُبْيَان
عَبْس
أشيب
تَيْم
عَدِيّ
ثَور
ضَبَّة
عَوْف (عُكْل)
بنو عامر بن صعصعة
كعب
كلاب
نُمَيْر
عُقَيْل
قُشَيْر
عَجْلان

قَيْس عَيْلان

يقال في اللغة: قاس يقيس قَيْسًا وقياسا، فقَيْسٌ: مصدر، والقَيْس: الشدة [١].

وعيلان – بفتح العين – فمن قولهم: عال يَعِيل عَيْلا وعَيْلة، افتقر وكثر عياله، فهو عائل وعَيَّال، والجمع عالة وعُيَّل [٢].

وقيس: هو: النَّاسُّ- بتشديد السين وتخفيفها - بن مضر، بمعنى: اليابس، من قولهم: نسَّت الخُبْزةَ تَنِسُّ نَسًا إذا يَبِسَ سَتْ. [٣]

و(في فقه اللغة) للثعالبي: النسُّ: الخبز اليابس.

ويقول محقق الكتاب في هذا الموضع: في الصحاح (نس) ٣/٩٨٣: قال الأصمعي النسُّ: اليُبْسُ وقد نسّ ينُسُّ وينِسُّ نسًّا. أي: يبس، يقال: جاء بخبزةٍ ناسّة.

أو من قولهم، نسَّ الإبل، إذا أطلقها وحلّها أو ساقَها سَوْقًا شديدًا، أو زَجَرها، وما إلى ذلك [٤].

وقد يكون التفسير الثاني هو المراد؛ لأن العرب تقصد تسمية الأعلام قصدا، وملحظ التسمية في غالب الأمر تفاؤلي، فالناسُّ سُمِّي بذلك تفاؤلا بحسن رعايته للإبل والشاء وغيرها.

---

(١) المعجم الوسيط (٢/٨٠٠)، وترتيب القاموس (٣/٧٢٢-٧٢٣).

(٢) السابقان.

(٣) المعجم الوسيط (٢/٩٥٤)، ولسان العرب (قيس)، والاشتقاق لابن دريد (٢٦٥).

(٤) فقه اللغة للثعالبي (٧٧).

وانظر: الاشتقاق لابن دريد (٢٦٥).

أو يمكن القول بأنه سمي بذلك تفاؤلا بأن يكون راعيا ناسًّا يحسن رعاية السائمة ويسوقها ويحسن هذا العمل ويجيده.

ولا مانع أن يقال: من الجائز أن يراد هذا أو ذاك، وهذا هو الأرجح، حيث الشدة مع الحِذق عند رعاية السوائم في الصحراء الشاسعة التي لا تخلوا من الضواري أمران مطلوبان في الراعي.

وأما (عَيْلان): فأرجح ما قيل في سبب تلقيبه بهذا اللقب: أنه كان فقيرا، وكان يسأل أخاه إلياس، (خِنْدِفا) فقال له: إنما أنت عيال عليْ، فَسُمِّي عيَلان[٥]، وقيل كان جوادا أتلف ماله فأدركتْه عيلة، فسمي عيلان![٦]

وعلى هذا: فكل من (قيس)، و(عيلان): لَقب لكل من: (الناسِّ)، وأبيه (مضر). قال الجوهري: قيس أبو قبيلة من مضر، وهو قيس عيلان، واسمه: الناسُّ بن مضر بن نزار، وقيس: لقبه[٧].

وقيس عيلان بالإضافة[٨]، وليس له سَمِيّ[٩]، إذ ليس في العرب (عيلانُ) غيره. ويقال: هو لقب مضر، لأنه يقال: قيس بن عيلان[١٠].

أما (قيس) عند الإطلاق: فتطلق على ذلك الشعب العظيم الذي ينتسب إليه قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

---

(٥) اللهجات العربية في الكتاب لسيبويه /٥٨

(٦) تاج العروس: ١٥/ ٥٣٤

(٧) وفي الصحاح ٣/ ٩٦٨

(٨) تاج العروس:٨/ ٤٣٤

(٩) السابق ١٥/ ٥٣٤

(١٠) الصحاح٥/ ١٧٧٩(قيس)

وقد تشعب (قيس) إلى ثلاث بطون: من: كعب، وعمرو، وسعد. بَنِيه الثلاثة[١١].

هذا، وهناك قبائل كاملة، أو فروع منها تدعى قيسا قيل إنها غير قيس التي نحن بصدد الحديث عنها. فهناك:

١- قيس: من قبائل الشرقية بمصر.

٢- قيس: فرع من قحطان عسير.

٣- قيس: من قبائل اليمن، تقيم في شرقي صنعاء.

٤- قيس: قسم من قبيلة رجال ألمع، التي تمتد ديارها ما بين أنمار وصبياء، وفيهم رياسة رجال ألمع.

٥- قيس: بطن من قضاعة، من القحطانية .. كانت مساكنهم بالأطفيحية من الديار المصرية.

٦- قيس: بطن من لخم، من القحطانية.

٧- قيس بن ثعلبة، بطن عظيم من بكر بن وائل.

٨- قيس بن ثوبان، من خزاعة.

٩- قيس بن جزء، بطن من بني كلاب.

١٠- قيس بن سعد، بطن من الخزرج، من الأزد، من القحطانية.

(١١) معجم قبائل العرب /٩٧٢

١١- قيس بن طريف، بطن من أسد بن خزيمة، من العدنانية.

١٢- قيس بن عامر، بطن من هَمْدان، من القحطانية، منهم الأعشى الشاعر.

١٣- قيس بن علي، يقطنون إحدى قرى (لَحَج) بشبه جزيرة العرب الجنوبية.

١٤- قيس بن عَنان، بطن من طئ من كهلان، من القحطانية.

١٥- قيس عمرو، بطن من ذهل بن شيبان، من العدنانية.

١٦- قيس بن الغوث، بطن من كهلان، من القحطانية

١٧- قيس كبة، بطن من بَجِيلة، من كهلان، من القحطانية.

١٨- قيس بن مالك، بطن من حنظلة بن مالك، من تميم، من العدنانية.

١٩- قيس: بطن من آل عامر بن صعصعة بن قيس بن عيلان، من العدنانية، كانت منازلهم بالبحرين.

٢٠- قيس بن مرهبة، من همدان، من القحطانية.

٢١- قيس بن هرثمة بطن من وادعة من القحطانية. *

* راجع: معجم القبائل العربية (٣/ ٩٧٠- ٩٧٣). =

وعن مساكن (قيس) المختلفة.. يقول البكري: قيس هذه من تهامة طالعين إلى بلاد نجد إلا قبائل منهم، فانحازت إلى أطراف الغور من تهامة[١٢] مثل هوازن[١٣].

ويقول الدكتور أحمد علم الدين الجندي: قبائل قيس التي في وسط الجزيرة، وثبت أن بعض قبائلها وبطونها كانت تعيش في الحجاز، وبعضها الآخر في نجد[١٤]. ويقول في موضع ثان: إن قيسا كانت شعبا عظيما تفرق إلى عدة قبائل، وتوزعت قبائلها على محيط شاسع في الجزيرة العربية، وبعض قبائلها كانت في وسط الجزيرة كعُقَيْل وغَنِيّ، وبعضها الآخر كان يسكن الحجاز[١٥]. ويقول في موضع ثالث: إن قيسا من القبائل الضخمة ذات الشعب والفصائل المتفرقة في شرق الجزيرة وغربها[١٦]. ويقول في موضع رابع: تَرَجَّح أن قبائل قيس منها ما كان يجاور الحجاز كغطفان، ومنها ما كان يجاور مناطق الشرق كغني، والذين كانوا يجاورون الحجاز: من الحضر، وما كان منها متصلا بأسد وتميم: من البدو[١٧].

= ومن الجائز أن تكون بعض هذه البطون التي تتسمى قيسا ترجع في نسبها إلى قبيلة قيس الكبيرة التي نتحدث عنها

(١٢) معجم ما استعجم ١/٨٧

وانظر: اللهجات العربية في التراث (١/٤٥).

(١٣) لغة تميم (٣٨).

(١٤) اللهجات العربية في التراث (١/٥٤).

(١٥) السابق (١/٢٥٠)، وراجع (٩٧-٩٨).

(١٦) نفسه (١/٨٢).

(١٧) اللهجات العربية في التراث (٢/٤٢٩).

ومن هنا: يذهب صاحب كتاب (لغة قريش) إلى تحديد المراد بقيس، فيقول: أما لغة قيس فإن المراد بها غالبا: القبائل القيسية المقيمة في العالية بين نجد والحجاز، لأنها كانت موضع اهتمام اللغويين دون سائر القيسية[١٨]. لكن يغلب على قيس طبعا البداوة.

هذا، وقد جاورت قيسا كلٌّ من: تميم وأسد، وكان يطلق على لهجاتهم جميعا عبارة: لغة نجد .. في مقابل لغة الحجاز أو أهل العالية[١٩].

وتمتاز لهجات البدو عموما - ومنهم قيس بطبيعة الحال - بخصائص لهجية تميزها في مجموعها عن لهجات غيرها خصوصا الحجاز، من مثل:

١- الإمالة للبدو، مقابل الفتح لغيرهم.

٢- الإدغام للبدو، مقابل الفك أو الإظهار أو التحقيق لغيرهم.

٣- تحقيق الهمز، مقابل تسهيله أو جَعْلِه بين بين لغيرهم.

٤- الأصوات المفخمة(المستعلية)، مقابل الأصوات المرققة (المستفلة) لغيرهم.

٦- الأصوات الشديدة، مقابل الأصوات الرخوة.

٧- الضم في البدو، مقابل الكسر أو الفتح لغيرهم على وجه العموم[٢٠].

---

(١٨) (ص: ٣٣). وانظر: (ص ٤٢).

(١٩) لغة تميم (٥٣).

أما عن قوة (قيس) وأهميتها بين القبائل العربية، فيقول الدكتور/ جواد على: وقد سمى الفرذدق قيس عيلان وخندفا بالحيَّيْن المُكَوِّنَيْن لِمَعَدّ، فقال:

إذا اجتمع الحيان قيس وخِنْدِفُ فثمَّ مَعَدٌّ هامُها وعَدِيدُها

وورد في شعر العجاج: حَيَّىْ مُضَر

وجاء في شعر لجرير:

إذا أخذتْ قيس عليك و خِنْدِفُ بأقطارها لم تَدْرِ من حيث تسرع

ممّا يدل على أن قيسا وخندفا كانا من القبائل القوية في هذه الأيام[٢١] «وفي حديث القبائل، يقول النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سُئل عن مضر: «تميمُ بزثَمَتُها وجُرْثَمَتُها». قال الخطابي : إنما هو «بُرْثَنَتُها» بالنون، أي : مخالبُها، يريد : شوكتها وقوتها ، والنون والميم يتعاقبان، فيجوز أن تكون الميم لغة، ويجوز أن تكون بدلا»[٢٢].

وفي (غريب الحديث) للخطابي، يقول ﷺ أيضًا وقد سُئل عن مضر: «كِنانة جوهرها، وأسد لسانها العربي، وقيس فرسان الله في الأرض وهم أصحاب الملاحم، وتميم بُرْثُمَتُها وجُرْثَمَتُها» [٢٣].

(٢٠) راجع في ذلك كله: اللهجات العربية في التراث (٢/٢٦٥-٣٤٦).

(٢١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٣٩٨).

(٢٢) غاية النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٧٨، ٨٢، ٩١، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١١٢)، على الترتيب.

وانظر: دراسات لغوية للدكتور عبد الصبور شاهين (ص: ٧٠).

(٢٣) مصادر أصول اللغة ، للدكتور عبد الفتاح البركاوي (ص: ١٩٣).

وأما عن ثقل قبيلة قيس وأهمية لهجاتها بين اللهجات العربية، فيعبر عنه أبو نصر الفارابي .. إذ يعد قيسا أول القبائل ولهجاتها أو اللهجات التي أخذت عنها لغة العرب، فيقول: والذين نقلت عنهم العربية، وبهم اقتدى، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب

هم «قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين .. ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم»[٢٤].

ويستدرك الدكتور/ الجندي على الفارابي ما أهمله من اللهجات بل أهمَّها جميعا وهو لهجة قريش، فيقول: فالكثرة من الألفاظ العربية أصيلة، من لهجة قريش أو غيرها من القبائل القيسية والأسَدية والتميمة والهُذَلية والطائية واليمنية وغيرِها[٢٥].

أضف إلى أهمية فصاحة قيس كثرةَ عددها هي وقبائل نجد عموما في مقابل الحجاز، وهذا عامل لا يمكن إهماله في دراسة اللهجات. يقول صاحب(لغة قريش) في تقرير هذه الحقيقة، وأهل نجد أكثر من أهل الحجاز، لأن المراد بأهل نجد: قبائل: قيس وتميم وأسد، وربما قبائل ربيعة أيضا.

أما المراد بأهل الحجاز: فقريش وحدها غالبا، وربما دخل معها الأنصار (أهل المدينة) وبعض بطون كنانة وخزاعة المجاورة وهو أقل جدا من أولئك[٢٦].

(٢٤) اللهجات العربية في التراث (١/ ١١٥)، ولغة تميم (٥٨)، ولغة قريش (٤٣٣).
(٢٥) اللهجات العربية في التراث (١/ ١٣٢).
(٢٦) لغة قريش (٤٣٥).

ولأهمية قيس وموقعها المؤثر خريطة اللهجات العربية جاء ذكرها في أجمع كتب للهجات العربية (٧٢) اثنتين وسبعين مرة على وجه العموم، منها (٣٩) تسع وثلاثون مرة لما أثر عنها من نطق خاص بها او تشترك مع غيرها فيه .. وذلك في مقابل (٦٧) سبع وستين مرة لأسد، منها (٣٤) أربع وثلاثون مرة لما أثر عنها أو تشترك مع غيرها في نطقه، في مقابل (١١١) إحدى عشرة ومئة مرة خاصة بتميم، منها (٦١) إحدى وستون مرة لما تميزت به من نطق خاص بها أو تشترك مع غيرها فيه، ومقابل(١٥٩) تسع وخمسون ومئة مرة للحجاز، منها (١٠٥) خمس ومئة مرة لما اختصت به من نطق لها أو تشترك مع غيرها فيه[٢٧].

كذلك: ذكرت لقيس قراءات قرآنية جاءت على لهجاتها في القرآن الكريم تسع عشرة مرة، مقابل إحدى وثلاثين لأسد، واثنتين وعشرين مئة لتميم، ومقابل ست وتسعين للحجاز[٢٨].

(٢٧) اللهجات العربية في التراث: فهرس لهجات القبائل العربية (٢/٧٨٩- ٧٩١).

(٢٨) دراسات لأساليب القرآن الكريم: القسم الثالث - الجزء الرابع - فهرس القبائل والجماعات (٤٧٧).

ظاهرة التضجع

تدور مادة (ض ج ع) ومشتاقاتها في اللغة حول الميل ونحوه فيقال: ضجع يضجع ضجعا وضجوعا، إذاوضِع جنبه على الأرض ونحوها، وضجع إليه: وضجعت الشمس أو النجم: مال للمغيب.

وأضجع الشيء: أماله. وأضجعته إضجاعا: وضعت جنبه بالأرض.

والأضجع: المائل. يقال: هو أضجع الثنايا، أي: مائلها[١].

أما في اصطلاح علم اللغة، فإن الإضجاع والتضجع يطلق عكل منهما ويراد به: الميل بالحركات في النطق، كما تمال الألف إلى الياء.

ففي تاج العروس:الإضْجاعُ في باب الحَركاتِ كالإمالَة والخَفضِ وهو مجازٌ أيضًا يقال: أَضْجَعَ الحَرْفَ أي أمالَه إلى الكَسرِ[٢].

وفي المعجم الوسيط: أضجع في الحركات: مال بها في نطقها كما تمال الألف إلى الياء[٣].

وفي المصدر المذكور أيضا: أضجع (إضجاعا) وتضجع(تضجعا) واضطجع(اضطجاعا) ضجع[٤].

---

(١) تاج العروس (١١/٢٩٩-٣٠٢: ض ج ع)، والمعجم الوسيط (١/٥٥٤-٥٥٥: ض ج ع).

(٢) (١١/٣٠٢: ض ج ع).

(٣) (١/٥٥٤: ض ج ع).

(٤) السابق.

وعليه: فالإضجاع هو التضجع، ولا فرق، وإن كان الإضجاع يستعمل مصطلحا مشهورا في علم القراءات، بينما يستعمل التضجع مصطلحا لغويا خاصة في علم اللهجات.

وكلا المصطلحين: الإضجاع، والتضجع يعد مستوى من مستويات الإمالة التي توجد في الدراسات اللغوية والتجويدية على السواء. ويشمل هذا المفهوم الاصطلاحي جميع الحركات، من فتحة وكسرة وضمة قصيرة أو طويلة في ميلها بعضها إلى بعض.

فقد عرفت الإمالة بأنها: تقريب الفتحة طويلة كانت أو قصيرة إلى الكسرة طويلة كانت أو قصيرة.

«وأوفى التعريفات من وجهة نظرنا للإمالة تعريف ابن السراج الذي نص فيه على إمالة الألف منفردة والفتحة منفردة، وأوجه منه أن نقول: الإمالة تقريب الفتحة قصيرة أو طويلة من الكسرة قصيرة أو طويلة»[٥].

إذ يتفق والحقيقة التي قررها الأقدمون[٦] وارتضاها المحدثون عندما ذهبوا إلى أن الفتحة من جنس الألف والكسرة من جنس الياء والضمة من جنس الواو، وأن الفرق بينهما يكمن في الكمية فقط[٧].

أما الهدف من إجراء الإمالة في بعض لهجات العرب، فيتمثل في: إمالة الفتحة نحو الكسرة وسيلة من وسائل تيسير النطق وبذل أقل مجهود عضلي، إذا الغرض منها في الأعم الأغلب تحقيق الانسجام الصوتي[٨].

(٥) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٥٦).
(٦) الكتاب (١٤٢/٤).
(٧) مناهج البحث في اللغة (١٢٠)، والإمالة في القراءات واللهجات العربية (٥٠)، وفي اللهجات العربية (٦٤).
(٨) اللهجات في الكتاب لسيبويه (٧٣).

ويوضح الدكتور/ الموافي ذلك بقوله: اعتد النحاة الكسرة قبل الألف أو بعدها سببا لإمالتها في نحو عماد وسربال وعابد، وذلك لغاية صوتية هي: توفير الجهد العضلي الناشئ من انتقال اللسان من وضع الفتح إلى وضع الكسر، أو العكس، فيحدث نوع من التقريب يكون وضع اللسان فيه عند نطق الألف قريبا من وضعه عند نطق الياء، وقد كانوا يعبرون عن مثل هذا بقولهم: ليكون عمل اللسان من وجه واحد. وهذا الاقتصاد يميل الإنسان إليه من غير تعمد(٩).

غير أن مصطلح الإمالة عندما يطلق يراد به في الغالب إمالة الفتحة أو الألف نحو الكسرة أو الياء إمالة شديدة أو كبرى وهو ما يعرف لدى علمائنا الأولين بالترخيم أو الروم، والبطح أو الإطجاع، كما كانوا يطلقون: التفخيم والفتح والنصب على ما خالف الإمالة(١٠).

يقول الدمياطي البناء: والإمالة أن تَنْحُوَ بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء كثيرا وهي المحضة ويقال لها الكبرى والإضجاع والبطح وهي المرادة عند الإطلاق، وقليلا وهو بين اللفظين، ويقال له التقليل، وبين وبين والصغرى" (١١).

أما مصطلح (التضجع) فصاحبه إمام اللغة ثعلب (ت ٢٩١هـ)، وذلك إذ يقول في معرض الحديث عن فصاحة قريش: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء(١٢).

(٩) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٦٦).
(١٠) اللهجات العربية في التراث (١/٢٧٦).
(١١) إتحاف فضلاء البشر (١/٢٤٧).
(١٢) مجالس ثعلب - المجلد الأول (٨٠-٨١). =

يقول الدكتور/ رمضان عبد التواب: «وقد روي ثعلب هذا الخبر مُلَخِّصا إياه مما ورد في مجلس معاوية - فيما يبدو - فقال: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وتلتلة بهراء، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجُّع قيس، وعَجْرَفِيَّة ضبة [١٣].

ويقول محقق هذا الموضوع من (مجالس ثعلب): ومما هو جدير بالذكر: أن (ثعلب) لم يفسر من هذه اللغات (اللهجات) التي ذكرها إلا أولها وآخرها وأغفل ما بينهما، وقد تكفلت كتب اللغة بتوضيح جميعها ما عدا التضجع، والتضجع لم أجد من فسره ولكن اشتقاقه اللغوي يوحي بأن معناه: الإمالة، وفي لسان العرب: والإضجاع في باب الحركات مثل الإمالة والخفض[١٤]. وهو مجاز، يقال: أضجع الحرف .. أي: أماله إلى الكسر[١٥].

ومعنى النص السابق: أن تلك اللهجات المذكورةَ وغيرها تعد من اللهجات المذمومة أو الرديئة، وتلك نظرة معيارية مقصودة من علمائنا القدامى تهدف في المقام الأول إلى الانتصار للهجة قريش التي نزل القرآن في معظمه بها[١٦].

= وانظر: الخصائص (١/١٣٢)، وسر صناعة الإعراب (١/٢٣٤) تحقيق السقا وآخرين، (١/٢٢٩) تحقيق: هنداوي، وخزانة الأدب (١١/٢٣٦، والمزهر (١/٢١١).

(١٣) فصول في فقه العربية (١١٩).

(١٤) (ص: ٧٨، هامش٢).

(١٥) تاج العروس (١١/٣٢).

(١٦) راجع الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٩٨)، وما بعدها.

يقول صاحب لغة قريش: وأما قيس فنسب إليها التضجع، ونسب إلى هوازن - وهي من قيس- الكسكسة، وكثير مما نسب إلى تميم من العيوب تشركها فيه قيس[١٧]، لأن هدفهم (الرواة) من هذا الجمع اللغوي هو خدمة القرآن والسنة ولم يكن في عزو اللهجات ما يخدم تلك الناحية في نظرهم[١٨].

بدليل أن سيبويه عندما عدّ الحروف الأصلية جعلها تسعة وعشرين فقال: أصل الحروف العربية تسعة وعشرون حرفا... الهمزة، والألف، والهاء، والعين، ... إلخ ، ثم أشار إلى الصور الصوتية التي تترتب على بعضها بقوله: إن هذه التسعة والعشرين التي تكون خمسة وثلاثين بحروف هن فروع وأصلها من التسعة والعشرين.. وعدّ منها الألف التي تمال إمالة شديدة، وقال عنها إنها كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار[١٩].

ولقد منيت الدراسات اللغوية مدة طويلة بسمة الصعوبة وأحيانا بسمة التعقيد.

يشهد بذلك تلاميذ المدارس من جهة، وهؤلاء الذين لم يتخصصوا في اللغة من جهة أخرى، والأجانب المستشرقون من جهة ثالثة.

ولعل نعت الدراسات العربية بهذه النعوت إنما جاءها لعدم التشديد في مناهجها، فما ورثناها عن آباءنا من خلط في التفكير اللغوي لا يزال كما هو، لسببين:

(١٧) (ص: ٣٤٨).

(١٨) اللهجات العربية في التراث (١/ ٢٩٠).

(١٩) الكتاب (٤/ ٤٣٣) وما بعدها. وانظر: دلالة السياق (ص: ٩٠).

أولهما: الاعتقاد بأن الأوائل قد أتوا بما لايمكن أن يزيد عليه الأواخر (وتلك نظرة جعلت الأتراك في مرحلة من المراحل يقفلون باب الاجتهاد. وبعبارة أخرى: يُحَرِّمون البحثَ العلمي تحريما تاما).

السبب الثاني: ضيق النظرة إلى اللغة العربية، واعتبارها مرتبطة بالقرآن احتراما أو امتهانا.

وقد أدى ذلك إلى قطع الصلة بينها وبين اللهجات العربية الأخرى: القديمة، والمعاصرة، والى تحريم الترخيص بالإضافة إلى محصولها، حتى إن بعضهم ليلزم استعمال ما جاء في المعاجم فحسب، ولا يسمح للوليد من الكلمات أن يدخل حظيرة الاستعمال اللغوي(٢٠)

هذا، والتضجع كما سبق: مصدر ضجع، وهو تَفَعُّل يراد به هنا جملة مَعَان: التلبس بمسمى ما اشتق منه، كتقمص وتأزر وتفرى وتدرع وتعمم وتقبىّ، إذا لبس قميصا وإزارا وفروة ودرعا وعمامة وقباء(٢١).

كما ألمح فيه مسحة التكلف والتشدد مما يتمشى وما عرف عن البدو من شدة وصرامة في حياتهم عامة ومنها نطقهم، إذ لا يخفى أن الانتقال بواسطة اللسان من وضع الراحة مع الفتحة إلى وضع أعلى حيث الإمالة الشديدة - تخطيا للإمالة الخفيفة - فيه شيء من الجهد العضلي،

(٢٠) مناهج البحث فى اللغة، د. تمام حسان (ص: ١٢).

(٢١) شرح التسهيل (٣/٤٥٢).

ومن معاني (التَّفَعُّل) غيرَ ما سبق: المضارعة، والتكلف، والتجنب، والصيرورة، والعمل في مسمى ما اشتق منه، والاتخاذ، ومواصلة العمل في مهلة، والاستثبات من الشي، والطلب، والتكبر، وغير ذلك. راجع شرح الشافية (١/١٠٤-١٠٥)، والتذييل والتكميل (٦/٤٩).

ويؤيد هذا الاستنتاج أيضا : أن ظاهرة الإشمام (اشمام الكسر صوتَ الضم) يُنسب –كما سيجيء – لقيس ، والإشمام وضعٌ لِلِّسان مُعلَّق، فلا هو كسر خالص كما هو الحال لدى الحجازيين، ولا هو ضم خالص لدى بعض بنى أسد وهم بنو دُبَيْر وبنوفَقْعَس.(٢٢)

يقول الدكتور رمضان عبد التواب في هذا الموضوع: يُعزى هذا اللقب إلى قبيلة قيس، في خبر الرجل الجَرْمى السابق، في رواية انفرد بها ثعلب، ورواها عنه بعض من جاء بعده من اللغويين، ولم يفسره أو يشرح المراد به واحد منهم، والتضجع في اللغة: مصدر(تَضجَّع في الأمر، إذا تَقَعَّد ولم يقم به).

ولعل المراد بتضجع قيس على هذا: تباطؤها أو تراخيها في الكلام، وتقعّدها فيه، كما يفهم من المعنى اللغوي لكلمة التضجُّع.

وفي اللغة: الإضجاع في الحركات، بمعنى: الإمالة فيها.

وهو – بهذا المعنى- من اصطلاحات كتب النحو والقراءات.

غير أن الإمالة لا تُعْزى في كتب اللغة إلى قيس وحدها، حتى يمكن تفسير (تضجع قيس) بإضجاع الحركات، وإنما يشاركها فيه تميم وأسد وعامة أهل نجد(٢٣).

غير أن هذا الذي ذهب إليه الدكتور/ رمضان عبد التواب يتناقض مع ما قرره غيره من المحدثين من أن البدو يميلون في كلامهم عموما نحو السرعة في النطق(٢٤).

(٢٢) راجع (ص: ٥٣)، وما بعدها من البحث.

(٢٣) فصول في فقه العربية (١٢٣).

(٢٤) انظر: في اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس (ص: ١٣٢)، وما بعدها.

هذا، وقد انتهى كتاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة إلى النتيجة التي خَلَصْنا إليها نفسها؛ وذلك إذ يقول: نسبت ظاهرة التضجع إلى قبيلة قيس.

أ- ففي (خزانة الأدب للبغدادي ٤/٥٩٦، بولاق): ورأيت في (أمالي ثعلب): ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس)، ولم يفسر التضجع.

ب- ووجدت النص السابق في(مجالس ثعلب ١/١٠٠) تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، وانظر تضجع قيس في(المزهر ١/٢١٠)، ولم يفسره أيضا.

جـ - وفي كتاب (العين للخليل ١/٢٤٦)، تحقيق د. عبد الله درويش: «كل شيء خَفَضْتَهُ فقد أضْجَعْتَه»، ثم يقول: والإضجاع في القوافي أن تُمِيلَها.

وفي (القاموس): الإضجاع في القوافي كالإكفاء أو كالإقواء، وفي الحركات كالإمالة(الخفض)، وفي (شرح القاموس): يقال أضجع الحرف، أي أماله إلى الكسر.

وفي (اللسان: ضجع ١٠/٨٧): «وضجعت الشمس، وضجّعت .. مالت للمغيب. ويقال: أراك ضاجعا إلى فلان، أي مائلا إليه، ورجل أضجعُ الثنايا: مائلها، ودلْوٌ ضاجعة: هي الملأى التي تميل في ارتفاعها من البئر لثقلها، والإضجاع في باب الحركات مثلُ الإمالة والخفض».

فالمادة السابقة تؤكد أن التضجع هو الإمالة في اللغة، وفي الاصطلاح كذلك، لما جاء في النص السابق من قولهم: (والإضجاع في باب الحركات مثل الإمالة والخفض)[٢٥].

أما الزميل حسن فرغلى، فقد جاء حديثه عن(التضجع في لهجة قيس) على صفحتين من كتابه وقد تأثر فيه بما جاء لدى الدكتور رمضان عبد التواب فيما يبدو، الذي اعتمد بدوره على ابن منظور، ونص كلام زميلنا: (قال ابن منظور: أضْجَع واضّجَعَ، والأصل (افْتَعَل)، لكن من العرب من يقلب التاء طاء ويظهرها عند الضاد، ومنهم من يقلب التاء ضادا ويدغمها في الضاد تغليبا للحرف الأصل وهو الضاد، ولا يقال (اطّجع) بطاء مشددة، لأن الضاد لا تدغم في الطاء فإن الضاد أقوى منها، والحرف لا يدغم في أضعف منه، وما ورد [من ذلك] شاذ لا يقاس عليه.

وقال ابن منظور أيضا: وتضجّع في الأمر: إذا تَقَعَّدَ ولم يقم به وتغافل عنه.

ولعل المراد بتضَجّعَ - على هذا - تباطؤها أو تراخيها في الكلام. وتقعدها فيه كما يفهم من المعنى اللغوي لكلمة (التضجع).

ويعزى هذا اللقب إلى قبيلة قيس في خبر الرجل الجَرْمى، في روايةٍ أوردها ثعلب، ورواها عنه بعض من جاء بعده من اللغويين.

فقد روي ثعلب هذا الخبر مُلَخِّصا إياه مما ورد في مجلس معاوية - فيما يبدو - فقال: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وتلتلة

(٢٥) (ص: ٢٢٦).

بهراء، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة.

وقد فسر ابن منظور وابن الجزري وغيرهما من علماء النحو الإضجاع بمعنى الإمالة.

قال ابن منظور: الإضجاع في الحركات بمعنى الإمالة فيها.

ويقول ابن الجزري: والإمالة أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء كثيرا وهو المحض، ويقال له الإضجاع.

وكذا عند النحويين.

وبالنظرة الفاحصة إلى ما ورد في كتب اللغة وغيرها نجد أن الإمالة لا تُعْزى إلى قبيلة قيس وحدها حتى يمكن تفسير (تضجع قيس) بإضجاعها الحركات، وإنما يشاركها فيه تميم وأسد وعامة نجد.

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس: ويمكن بصفة عامة أن تنسب الفتح إلى جميع القبائل التي كانت مساكنها غربي الجزيرة بما في ذلك قبائل الحجاز أمثال قريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة، وأن تنسب الإمالة إلى جميع القبائل الذين عاشوا في وسط الجزيرة وشرقها، وأشهرها تميم وأسد وطيء وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب، ويكاد القدماء يتفقون على أن الفتح لهجة أهل الحجاز، وأن الإمالة لهجة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس.

ويبدو أن ذلك راجع إلى أن أهل البادية كانوا يميلون - في كلامهم - إلى الاقتصاد في المجهود العضلي، والإمالة تحقق لهم ذلك بما فيها من انسجام بين الأصوات[٢٦].

(٢٦) المستويات اللغوية في لهجة قيس (١٠٣-١٠٤).

تضجع قيس (إمالة قيس)

وضَح لنا مما سبق: أن التضجع لدى قيس هو ما يعرف عند علماء اللغة[١] بالإمالة، والكسر، والترخيم، والإمالة الشديدة لدى علماء التجويد والقراءات[٢] بالكسر، والبطع، والإضجاع، والإشباع، والإجناح، والألف المعوج، واللَّليِّ، والإمالة الشديدة، والكبرى، والمحضة، خصوصا ابن الجزري (٨٣٣هـ) في (النشر) الذي خصص، فجعل المحض والإضجاع والبطح والكسر من أسماء الإمالة الشديدة خاصة، وتابعه السيوطي(٩١١هـ) بوصفه قارئا في(الإتقان)[٣] وذلك هو المَعْنِيُّ عند إطلاق الإمالة، أي: إمالة الفتحة نحو الكسرة، والألف نحو الياء. يقول الدكتور/ عبد الفتاح شلبي: كان الأقدمون من اللغويين والقراء يطلقون مصطلحات: الكسر، والبطح، والإشباع، والإضجاع، والألف المُعْوَجّ، واللّليّ، على الإمالة بنوعيها الشديدة والخفيفة، حتى جاء ابن الجزري فجعل المحض، والإضجاع، والبطح، والكسر، من أسماء الإمالة الشديدة، وجعل بين اللفظين، والتلطيف، والتقليل، وبين بين، للإمالة الخفيفة. وتابعه السيوطي في ذلك.

---

(١) كسيبويه في الكتاب، والمبرد في المقتضب، وابن خالويه في الحجة، والزمخشري في المفصل، وابن يعيش في شرح المفصل، وابن الحاجب في شرح الشافية، والرضي في شرح الشافية أيضا وأبي حيان في الارتشاف

(٢) كأبي علي الفارسي في الحجة، ومكي في التبصرة، والكشف، والداني في الموضح، والرعيبي في الكافي، وسبط الخياط في المبهج، والشاطبي في حرز الأماني، وأبي شامة في إبراز المعاني، والجعبري في شرح حرز الأماني..

راجع في هؤلاء وأولئك: الإمالة في القراءات واللهجات العربية

(٣) انظر: الإمالة في القراءات واللهجات العربية (٢٨-٣٩).

والقراء هم الذي يتكلمون في درجات الإمالة، ويضعون لنوعيها الأسماء المختلفة. أما النحاة فلا يتعرضون لذلك، إلا ما كان من ابن يعيش في شرح المفصل، ولعله قد نقل عن القراء واحتذى حذوهم(٤) ولكلٍ وِجْهة.

فالنحاة عندما يتكلمون عن الإمالة يتناولونها من حيث حقيقتُها وفائدتُها وحكمها ومحلها وأصحابها من القبائل، وأسبابها، دون اهتمام بمذاهب القراء في الأداء من فتح أو إمالة أو بين اللفظين، إذا كان ذلك لا يتصل بصميم ما يبحثون أو يتناولون. ولكن القراء يهتمون في كتبهم اهتماما خاصا بأصحاب الإمالة من القراء، ومذاهبهم المختلفة فيها. فمن القراء من يفتح (والفتح) على درجات فمنه الشديد ومنه المتوسط، ومنهم من يكسر (والكسر) على درجات كذلك، ومنهم من اتخذ لنفسه طريقا وسطا بين المذهبين فكانت قراءاته بين اللفظين.

ولهذا عَنْوَن كثير منهم هذا الباب بالفتح والإمالة وبين اللفظين، ومنهم من اقتصر على لفظي(الفتح والإمالة) فقط(٥).

هذا، وقد طالعتنا كتب النحو واللغة أن أصحاب الإمالة هم: تميم، وقيس، وأسد، وعامة أهل نجد. يقول أبو شامة الدمشقي (٦٦٥هـ) في ذلك: الإمالة وفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وقيس وأسد. ويقول مثل ذلك ابن الجزري.

(٤) الإمالة في القراءات واللهجات العربية /٣٦

(٥) الإمالة في القراءات واللهجات العربية /٣٦

ونتيجة هذه النصوص: أن القسم الشرقي من الجزيرة يُميل، ممثلا في تميم وقيس وأسد، وأن القسم الغربي يفتح، ممثلا في الحجاز[٦].

يقول الدكتور/ شلبي: وما ورد في كتب النحاة والقراءات يدلنا على أن أصحاب الإمالة من القبائل هم: تميم وقيس وأسد وعامة أهل نجد، وهم لا يختلفون في ذلك، فعبارتهم تكاد تكون (واحدة) [٧]. وهذا لا يمنع ظهور الإمالة في مواضع قليلة بلهجة بعض المتبدين من الحجازيين وكثر من أهل اليمن كما جاء في روايات اللغويين[٨].

ويقول صاحب (لغة قريش): وتتفق المصادر على أن الفتح لغة أهل الحجاز والإمالة لغيرهم، إلا أن بعضها أنسب إليهم من إمالة كلمات قليلة نسب فيها شيء من الغموض وعدم التحديد إذ يعممها أحيانا على أهل الحجاز وأحيانا يخص بها بعضهم من دون أن يسميه[٩].

ويقول الدكتور/ الموافي: أما عن العرب القدماء الذين وجدت ظاهرة الإمالة في لهجاتهم: فإن كتب اللغة والقراءات تذكر منهم: تميما،

(٦) اللهجات العربية في التراث (١/١٨، ٢٧٩).
وراجع في هذه المسألة: شرح المفصل (٩/٥٤)، وشرح الشافية للرضي (٣/٤)، ومنهاج الكافية في شرح الشافية (١٦٤)، والنشر (٢/٣٠)، والإتقان (١/٩٣)، والإتحاف (٧٤)، وفي الكتاب لسيبويه عنوان يقول: (هذا باب من إمالة الألف، يميلها فيه ناس من العرب كثير) صرّح فيه: أن الترخيم (الإمالة) فيها لتميم ومن تابعهم من قيس وأسد (٤/١٢٣).
(٧) الإمالة في القراءات واللهجات العربية (٧٥)، وانظر: (ص ٧٦).
(٨) اللهجات العربية في الكتاب لسيبويه (٩٧).
(٩) لغة قريش (٩٣).
وراجع كذلك: الإمالة في القراءات واللهجات العربية (٨٠).

ومن جاورهم من أهل نجد كأسد وقيس، وبعض المصادر يخص بالذكر هوازن من (قيس) وبكر بن وائل (من أسد)، وأكثر أهل اليمن، وتذكر أيضا: أن التفخيم لغة أهل الحجاز، وأنهم لا يُميلون إلا في مواضع قليلة(١٠).

أما القرآن الكريم فكان يراود بين الفتح والإمالة، وقد ذكرت كتب القراءات في أصولها وفرشها شيئا كثيرا من ذلك، بل كل من أمال أو فخم له وجه في العربية لا يُدْفع وقصد لا يُنكر، لأن من أمال أو فتح: له طريق واضح في النقل والرواية. فالحجة لمن فخم: أنه أتى بالكلام على أصله ووجهه الذي كان عليه، لأن الأصل: التفخيم (الفتح) والإمالة فرع عليه، وقد أمال بعض القراء أفعالا فخمها غيرهم، والحجة في ذلك: أنه (القرآن) أتى باللغتين ليُعلم أن القارئ بهما غير خارج عن ألفاظ العرب، وليس التفخيم (الفتح)، والإمالةُ اختلافا في نفس اللغة (اللهجة) وإنما ذلك اختلاف في اللحن وتقديرُ الصوت وتزيينُه، وقد اختار كل فريق من العرب وَفْق طباعه(١١).

أما عن قراء القرآن الذين يميلون تصويرا لتلك اللهجات العربية، ومدى شيوع إمالتهم قلة وكثرة، ودرجة تلك الإمالة توسطا وشدة فيقول الدكتور/ شلبي في هذا الخصوص: الإمالة لهجة من اللهجات التي

(١٠) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٧٥)، وانظر: اللهجات العربية في التراث (١/ ٢٨٠).

(١١) اللهجات العربية في التراث (١/ ٢٧٨). وعبارة «لأن الأصل التفخيم (الفتح) والإمالة فرع عليه» التي وردت في النص منقولة عن أبي علي الفارسي في (الحجة) كما سيأتي، وليست دقيقة علميا؛ لأن كلا الظاهرتين مروي عن فصحاء العرب، فكلاهما أصل. وراجع أبا شامة السابق قريبا.

جرت على ألسنة بعض قبائل العرب، بوصفها أحد لحون العرب التي رخص الرسول ﷺ في قراءة القرآن بها، وقال أبوشامة: القرآن العربي فيه من جميع لغات العرب، لأنه نزل عليهم كافة، وأبيح لهم أن يقرأوه على لغاتهم المختلفة، فاختلفت القراءات لذلك، وكانت هذه الإباحة دليلا على سماحة هذا الدين والتيسير منه على المتعبدين[١٢].

وفي موضع لاحق ينقل الدكتور/ شلبي عن القراء المميلين قول الإمام الجعبري في شرحه حرز الأماني: القراء أقسام، منهم من لم يُمل شيئا وهو ابن كثير، ومنهم من أمال وهم قسمان:

١- مُقِلّ. وهم: قالون، وابن عامر، وعاصم.

٢- مُكْثِر. وهم: ورش وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي[١٣].

فأما ورش وأبو عمرو، فإنهما يميلان إمالة خفيفة أو بين بين[١٤].

وأما حمزة والكسائي، فإنهما يميلان إمالة شديدة أوكبرى[١٥].

حيث سندُ حمزةَ لعلي بن أبي طالب كلُه لشيوخ كوفيين[١٦]، وكان الكسائي مولى لبني أسد وربيبَهم[١٧]. وحمزة(ت١٥٦هـ) أستاذ الكسائي (ت١٨٩هـ)[١٨].

---

(١٢) الإمالة في القراءات واللهجات العربية (١٠٥).

(١٣) السابق (ص: ١٠٨).

وانظر: الخصائص (١/١٣٥-١٣٩).

(١٤) نفسه (١٠٩-١١٠). وانظر: (ص: ١٣٤-١٣٥).

(١٥) نفسه، وراجع: (ص: ١٠٨-١١٠).

(١٦) نفسه (١٢٧).

(١٧) نفسه (١٢٨).

(١٨) الإمالة في القراءات واللهجات العربية (١٣٠).

وفي موضع آخر يقرر الدكتور شلبي: أننا نستطيع إرجاع مذهب كل إمام من هؤلاء الأئمة إلى أحد عاملين، أو هما معا.

١- شيوخه الذين قرأ عليهم وأخذ عنهم.

٢- البيئات التي توطنوها، وما شاع فيها من لهجة الفتح أو الإمالة حيث القبائل التي استوطنت هذه البيئات(١٩).

على أن العامل الأول هو الأهم: لأن الإمالة أساسها التلقي والرواية، والقراءات سنة متبعة(٢٠). والقراء المميلون أمالوا الأحرف التي أمالوها متبعين في ذلك الأثر والنقل عن أئمتهم ، دون السير وراء النظر والقياس(٢١).

هذا، وإذا كانت الألفاظ الممالة عند النحاة الأولين من لدن سيبويه هي ما سمع من العرب: فإن مادة الإمالة عند القراء طبعي أن تكون حروف القرآن الكريم(٢٢).

ولذلك: فالمُمِيلون عند النحاة هم القبائل العربية، أما عند القراء فهم الأئمة ومن نقلوا عنهم(٢٣). على أن النحاة لم يَصْدُروا في وضع قواعدهم عن الإمالة إلا مما سمعوه من العرب، والقراءات لم تخرج عن هذا المسموع وإلا خرجت من باب الصحة.

(١٩) نفسه (١١٦)، اللهجات العربية في التراث (١/ ١٨٥-٢٨٧).
(٢٠) الإمالة في القراءات واللهجات العربية (٢٢٨).
(٢١) السابق (٢٣٣).
(٢٢) نفسه (٣٠٤).
(٢٣) نفسه (٣٠٥).

فليس القارئ إذا أمال مُلْزَما بإمالة كل ما يجوز إمالته، بل هو محكوم بما نقله عن شيخه، وهكذا حتى يصل السند إلى رسول الله -ﷺ- إذ القراءة سنة متبعة[٢٤]، كما سبق.

وعن لهجة قيس عموما، وتضجعها خصوصا (أي إمالتها) نجد إشارة لسيبويه في الكتاب تُفَصِّح هذه القبيلة ولهجتَها ومنها ظاهرة التضجع (الإمالة) فيقول: واعلم أن الذين قالوا (رأيت عِدًا) الألفُ ألفُ نصبٍ (فتح) و(يريد أن يضربها) يقولون: (هو مَنًا) و(إنّا إلى الله راجعون) وهم بنو تميم، ويقوله أيضًا قوم من قيس وأسدٍ ممن تُرتَضَى عربيته[٢٥].

ويقول في موضع آخر عن ترخيم (إمالة) الألف المبدلة من ياء أو واو: وقال ناس يوثق بعربيتهم: هذا باب، وهذا مال، وهذا عاب.

ولما كانت (الألف) بدلا من الياء كما كانت في (رميتُ) شُبِّهَتْ بها، وشبهوها في (باب) و(مال) بالألف التي تكون بدلا من (غزوت) فتبعت الواو الياء في العين كما تبعتها في اللام، لان الياء قد تغلب على الياء هنا. وقد عزى الترخيم هنا إلى بنى تميم[٢٦].

وبهذه المناسبة: فإن قبيلة سعد بن بكر التي استُرْضِع فيهم النبي ﷺ كانت فرعا من قيس، وقد ظهر شيء من لهجة تلك القبيلة في نطقه ﷺ ذات مرة، فقد جاء في (الإتقان)، وفي (جمال القراء) عن صفوان بن

(٢٤) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٦٩).
(٢٥) الكتاب (٤/١٢٣).
وانظر: اللهجات العربية في الكتاب لسيبويه (٨٣).
(٢٦) اللهجات العربية في الكتاب لسيبويه (٨٨-٨٩).

عسال أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ: (يَا يَحْيَى) فقيل له: يا رسول الله، تُمِيلُ وليس هي لغةَ قريش ؟ فقال: هي لغة الأخوال بني سعد.. وبنو سعد هم حضنة الرسول ﷺ وينتهي نسبهم إلى قيس، وثبت قبل ذلك أن قيسا من القبائل المميلة، لهذا كانت سعد بن بكر تؤثر الإمالة. ومما يؤيد ذلك: ما ذكره الإمام أبو قاسم الهُذَلِيُّ في كتابه (الكامل) من أن الإمالة في سعد بن بكر(٢٧).

بقى أن نشير هنا إلى أن العلاقة التي كانت تربط بين هذه القبائل الثلاث: تميم، وقيس، وأسد، إنما هي علاقة جوار. فأسد من قبائل ربيعة المجاورة لتميم، وقيس قبيلة عظيمة، جزء منها نجدي - نزل نجدا - وجزء حجازي، وأغلب الظن أن من تابع تميما هنا: من قيس النجدية(٢٨). لدرجة أن قريشا وقيسا كان يطلق عليهما: عليا مضر(٢٩).

هذا، ويُعَدّ تأصيلا لكل ما سبق وتأكيدا لهذه الدراسة ما جاء في بحث (تضجع قيس)، حيث يقول كاتبا مادته الخبيران بمجمع اللغة العربية بالقاهرة: بخاطره الشافعي، ود/ عبد الصبور شاهين:

ونعرض الآن بعض النصوص التي تؤكد أن قبيلة قيس من القبائل المميلة:

١ - العرب مختلفون في ذلك، فمنهم من أمال وهم تميم وأسد وقيس وعامة أهل نجد. (الهمع ٢/ ٢٠٤ السعادة).

---

(٢٧) اللهجات العربية في التراث (١/ ٢٨٤).

(٢٨) اللهجات العربية في الكتاب لسيبويه (٨٥).

وراجع- كذلك - في المصدر المذكور (ص: ٤٥).

(٢٩) لغة قريش (٤٢).

٢- الفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وقيس وأسد. (إبراز المعاني ١٥٢ ط الحلبي).

٣- وابن الجزري في (النشر٢/ ٣٠) يدخل قيسا في القبائل المميلة. (أشرف على مراجعته الشيخ الضباع، ط/ مصطفى محمد)

٤- وفي الأشموني، وشرح التصريح للشيخ خالد الأزهري ٣٤٧/٢ دار إحياء الكتب العربية يقول: (وأما أصحابها – أي الإمالة – فتميم وقيس وأسد وعامة نجد).

وكذلك كتب علوم القرآن تدخل قيسا في القبائل المميلة، لهذا لا نوافق المستشرق رابين حين زعم أن التضجع هو الكسل في النطق، وأنه أشبه بالعجعجة والغمغمة.

وفي حاشية الصبان على الأشموني ٤-٢٢٠ ط عيسى الحلبي: (وتسمى الإمالة الكسرَ والبطح والإضجاع، وتسمى الكسرَ لما فيها من الإمالة إلى الكسر، والبطح لما فيها من بطح الفتحة إلى الكسر، أي: إمالتها إليه، وأصْلُ بطح الشئ إلقاؤه ورميُه، ويلزمه إمالته).

وتسمية الإمالة بالكسر: يوضحه ما ورد في المفصل لابن يعيش ٥٤/٩: وعامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس يَسْرُون إلى الكسر.

فالكسر في هذا النص معناه الإمالة.

هذا، والتفخيم هو الأصل والإمالة فرع عليه (الحجة لابن خالويه ورقة ٣ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩٥٢٣).

وكل من أمال أو فخم في العربية لا يُدفع، وقصد لا ينكر، إذ إن كل من أمال أو فتح له سند من النقل والرواية، وقد أمال بعض القراء أفعالا فخمها غيرهم، وحجة كل: أنه أتى باللغتين ليُعْلم أن القارئ بهما غير خارج عن ألفاظ العرب.

وإذا كان التضجع في قيس هو الإمالة كما أثبتنا: فالإمالة: تقريب الألف نحو الياء، والفتحةِ التي قبلها نحو الكسرة، وهدفها كما يقول ابن يعيش: تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل (شرح المفصل ٩/ ٥٤) ففي تضجع قيس تقريب الألفاظ من الياء، لأن الألف من الياء، ولأن الألف تُطلب من الفم إلى أعلاه، والكسرة تطلب أسفله، فتنافرا، ولهذا جنحت الفتحة نحو الكسرة، والألف نحو الياء، وبهذا زال الثقل. وحل محله الانسجام الصوتي والتماثل.

ومن الجدير بالذكر أن بطون قيس كانت تؤثر التضجع (الإمالة).

ففي (جمال القراء): عن صفوان بن عسّال أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا يَحْيَى﴾. فقيل له: يا رسول الله، تميل، وليس هي لغةَ قريش؟ فقال: هي لغة الأخوال بني سعد.

وبنوسعد ينتهي نسبهم إلى قيس صاحبة التضجع.

ومن القبائل المميلة: هوازن، وهي من قيس كذلك.

كما أن نظرة واحدة في كتب القراءات القرآنية تريك نماذج كثيرة ويتردد كثيرا اسم الكسائي وحمزة في باب الإمالة (النشر ٢/ ٣٥/

٨٥، ٧١، ٦٢، والإضاءة: ٣٨)، ولقد ربطت تلك الظاهرة بين قيس في داخل الجزيرة العربية وخارجها.

أ- إن قبائل نجد أصحاب إمالة (الهمع ٢/ ٢٠٤)، وقيس كانت تسكن نجدا، والوطن الشامي نزلت فيه قبائل نجدية كثيرة.

ب- كما نجد إمالة عامرة في الأندلس، فأهل غرناطة يقولون: كِتِيب بدلا من كتاب. وفي (الإحاطة لابن الخطيب ١/ ٣٥): أن (كوند) المؤرخ الأسباني كات يكتب (هشام) هكذا hixem. ولا يكتبها hiam

وسافر شكيب إلى الأندلس وطلب قَطْع ورقة السفر إلى (دانية) فتلفظ بها بدون إمالة فلم يفهموا ماذا يريد، حتى ردّه أحدهم: هي: denie لا Daniay (المقتطف، يناير، ص ٤٢فما بعدها، سنة١٩٣٢م).

ومعلوم أن السواد الأعظم من العرب الذين فتحوا أسبانيا كانوا من أهل الشام.

جـ - يَمِيل البدوُ على ساحل مريوط إلى الإمالة (دراسة لغوية في لهجات البدو في مصر ٣٢٨ مخطوط بمكتبة دار العلوم. د/ عبد العزيز مطر).

ويرى القَلْقَشَنْديُّ: أن هؤلاء من بني سُليم من قيس، ومساكنهم ببرقة مما يلي المغرب، ومما يلي مصر (معجم كحالة ٢/ ٥٤٣) ولهذا تتميز اللهجة الليبية بالإمالة، وهي أشد في طرابلس، لأن قبائل سُليم أقامت في جهاتِ طرابلسَ زمنا.

د - أما في مصر: فتظهر الإمالة في مدينة بلبيس من الشرقية، وفي مديريتي المنوفية والبحيرة وبعضِ أجزاء الفيوم، وتعليل ذلك سهل ميسور إذا عرفنا أن بطون قيس نزلوا بلبيس كما نزلها أهل بيت من قبيلة سُليم التي هي بطن من قيس (البيان والإعراب).

وفي (صبح الأعشى ١: ٣٦٤-٣٦٦) أن لواتة - وهم من قيس – لهم بمصر بطون كثيرة، و بالمنوفية منهم بنو يحيى، والسّوة، ومنهم جماعة بالبحيرة، وجماعة بالمنوفية.

ويرى الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه (من أصول اللهجات العربية في السودان: ص ٦٤): أن أغلب الظن في الإمالة التي اشتهرت في معظم اللهجات العربية التي انتشرت في أقطار البحر الأبيض المتوسط قديما وحديثا، إنما ترجع إلى ترادف الهجرات اليمنية والقيسيِّة على هذه الأقطار مع تعاقب العصور.

ومن أجل ذلك احتفظت بطون قيس في المنازل الجديدة التي هاجرت إليها بعد الفتح العربي بالتضجع (الإمالة)، لأن لهجاتهم الحديثة تحمل بذورا أصيلة للهجات القبيلة(الأم) في الجزيرة العربية(٣٠).

وعن مفهوم (الإمالة) والمناطق العربية المعاصرة التي توجد بها هذه الظاهرة، يقرر الدكتور علي عبد الواحد وافي ما أن نصّه: «الإمالة .. أن تنطق بفتحة الحرف السابق للألف قريبة من الكسرة وبالألف قريبة من

(٣٠) المصطلحات اللغوية في اللهجات العربية القديمة، بحث منشور ضمن كتاب المجمع (اللهجات العربية – بحوث ودراسات: ص ٢٢٧-٢٣٠)، لخبيري المجمع: بخاطره الشافعي، ود. عبد الصبور شاهين.

الياء ، وهي على ضربين: متوسطة وشديدة. والإمالة لغة عامةِ أهلِ نجدٍ من تميم وقيس وأسد ....

ويسير على طريقة الإمالة بعض اللهجات، وخاصة عند أهل بني غازي بليبيا، وعند جميع العرب النازحين إلى مصر من الغرب: البراعصة، الفوايد، الرماح، الحرابي، أولاد علي، سمالوس، خويلد، الضعفاء .. الخ. ومكان معظمهم في المنيا وبني سويف والفيوم والإسكندرية وضواحيها» [٣١].

(٣١) اللهجات العربية – بحوث ودراسات (ص: ٣٣٧-٣٣٨).

التضجع والمحدثون

لكي نفهم الإمالة - ومنها التضجع لدى قيس - بصورة كاملة علينا أن نتصور وضع اللسان_مقدَّمه ومؤخَّره) بالنسبة إلى مقاييس أصوات اللين على مربع (دانيال جونز) الشهير لأصوات الحركة، وهي على النحو الآتي[١]

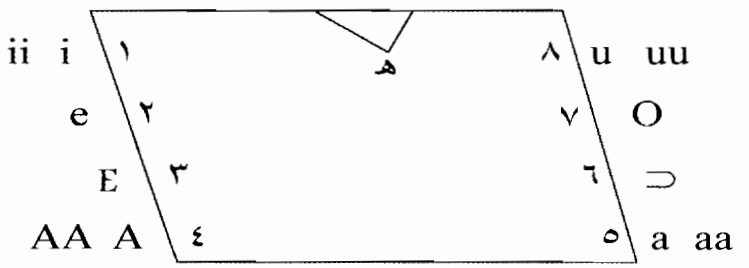

أ- وسَط اللسان

تمثل قاعدة المربع التي تقع بين المقياسين:٥ ،٤على الترتيب حالة اللسان (أقصاه ووسطه) وهو في وضع الراحة تقريبا قارا في قاع الفم.

(١) راجع في هذا الموضوع: الأصوات اللغوية، للدكتور أنيس (٢٩=٤٣)، وعلم الأصوات للدكتور كمال بشر (١٣٧-١٥٤)، والتجويد والأصوات للدكتور نجا (٣٢-٤٦)، وأصوات اللغة العربية للدكتور هلال (٤٠٣-١٤٤)، والأصوات العربية للدكتور جبل (٢٣٧-٢٤٨)، وعلم الصوتيات للدكتورين عبد الله ربيع ، وعبد العزيز علام (١٤٧-٢٠٦)، وغيرَهم.

وقد جرت عادة الدارسين أن يبدأوا من أسفل إلى أعلى حيث يكون اللسان في وضع الراحة، ومن اليسار إلى اليمين حيث وسط اللسان ثم مُؤَخّرُه. وهذا أمر منطقي عند الشرح والبيان لمقاييس أصوات اللين على ذلك المربع المذكور.

١- ينتج لنا المقياس رقم (٤) الفتحة المرققة كفتحة كاف (كتب)، كما ينتج لنا الألف المرققة في مثل: زان- جاء- دار – الناس- .ومعروف أن الفتحة من جنس الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو، وأن الفرق بين كل صوت وصاحبه لا يعدو أن يكون فرقا في الكمية فقط. فالألف ضعف الفتحة في زمن النطق، والياء ضعف الكسرة، والواو ضعف الضمة[٢].

٢- عندما يبدأ وسط اللسان في التحرك إلى أعلى قليلا عن الوضع السابق يصادف في اتجاه وسط الحنك الأعلى المقياس رقم (٣)، وينتج لنا في هذه الحال الفتحة القصيرة وقد أميلت إلى الكسرة القصيرة، والألف وقد أميلت إلى الياء إمالة خفيفة في كل منها، كما في قراءة ورش عن شيخه نافع عموما، وقراءة حفص عن شيخه عاصم كلمة (مجريها) فقط في سورة هود[٣]. وتسمى تلك الحال بالإمالة الخفيفة، أو إمالة بين بين، أو الإمالة المتوسطة أو الصغرى لدى علمائنا القدامى والمحدثين على السواء، وهي قراءة كل من: ورش، وأبي عمرو، من السبعة[٤].

(٢) راجع: سر صناعة الإعراب (١-٩٩)، تحقيق السقا وزملائه.
(٣) الإمالة في القراءات واللهجات العربية (١١٠).
(٤) السابق (١٠٩).

٣- عندما يزيد ارتفاع وسط اللسان أكثر مما سبق: يصادف المقياس رقم (٢) وينتج لنا في هذه الحال: الفتحة القصيرة وقد أميلت إلى الكسرة القصيرة، والألف وقد أميلت إلى الياء أكثر مما هي في الحال السابقة.

فمن إمالة الفتحة العادية نحو الكسرة العادية. إمالة شديدة: إمالة الفتحة قبل تاء التأنيث المربوطة حين الوقف عليها.

قال سيبويه في ذلك: «وسمعت العرب يقولون: ضربت ضربِة وأخذت أخذِة»(٥)، وقد قاس ثعلب وابن الأنباري هاء السكت على هاء التأنيث، فأجازوا إمالة ما قبلها(٦)، مثل كتابيه - ماليه - يتسنه(٧).

ومثال ذلك: ما نسمعه الآن في نطق أهل الشام من إمالة الفتحة في مثل: ليلة وسلامة، إذ تتحول الفتحة الأخيرة ألفا ممالة إمالة شديدة، فيصير اللفظان السابقان إلى صورة لَيْلِى Laylee وسَلاِمى slaamee(٨).

ولا تزال لهذه الحال أمثلة تسمع لدى أهل المنوفية - حيث أعمل - من مثل: الجامعِة - الكليِّة - المأموريِّة - السكرتاريِة ... إلخ.

وقد جاءت قراءة الإمام الكسائي – من السبعة - تصور هذه الحال وتلك اللهجة، حيث أمال الفتحة قبل ألف التأنيث المربوطة حين الوقف عليها نحو الكسرة، كما في رحمة – نعمة – خليفة – رأفة – بهجة... إلخ(٩).

(٥) الكتاب (٤/ ١٤٠).
(٦) الارتشاف (١/ ٢٤٤).
(٧) الإتحاف (١/ ٢٩١).
(٨) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٧٣).
(٩) الإتحاف (١/ ٢٩٢).

بل إن الكسائي قد اختص بإمالة ما قبل هاء التأنيث، وعندما سئل عن ذلك قال: هذه طباع العربية. قال الحافظ الداني: يعني بذلك أن الإمالة هنا لغة أهل الكوفة وهي باقية فيهم إلى الآن (عصر ابن الجزري).

وإمالة ما قبل هاء التأنيث التي اختص بها الكسائي هي ما عبر عنها سيبويه بقوله: سمعت العرب يقولون" ضربِه، وأخذته أخْذِه.[١٠].

ومن إمالة الألف الْمَدِّيَّة نحو الياء المدية كذلك إمالة شديدة أو كبرى: إمالة الألف في مثل: ﴿والضحى﴾[١١]، و﴿بناها﴾، و﴿فسواها﴾[١٢]، نحو الياء في قراءة الأئمة: حمزة، والكسائي، وخلف من العشرة، على أصولهم في ذلك. وتسمى تلك الإمالة - إمالةُ الألف نحو الياء حيث المقياس رقم (٢) - إمالة شديدة أو كبرى، كما تسمى بطحا وإضجاعا، كما سبق. ويُجنتب في هذه الإمالة القلب الخالص إلى الياء، والإشباع المبالغ فيه نحوَها، وبالمناسبة: فكلمة (عَيْلان) من عبارة (قيس عيلان) من هذا النوع من الإمالة. فمما أميل من أجل الياء، نحو: شيبان وقيس عيلان وغِيلان ... إلخ.[١٣]

٤- يمثل المقياس رقم (١) وضع اللسان وقد ارتفع إلى أقصى درجاته دون أن يحدث حفيفا(احتكاكا) مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى. وينتج لنا في هذه الحال: الكسرة القصيرة المرققة (العادِيَّة) كما في كسرة كاف (كِتاب)، والكسرة الطويلة (الياء العادية) كما في ياء (كِتابي).

(١٠) اللهجات العربية في التراث (١/٢٨٥).
(١١) الإتحاف (٢/٦١٦).
(١٢) السابق (٢/٥٨٦).
(١٣) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٦١).

أما إذا ارتفع وسط اللسان أكثر من ذلك بحيث يحدث حفيفا (احتكاكا) مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى: فإنه ينتج لنا نوعا من الكسرة القصيرة الضيقة جدا، والياء الضيقة جدا ، وكلاهما لا يوجد في العربية، وإن وجد في غيرها من اللغات.

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين في مجمل ما سبق تقريبا: «الألف الممالة إمالةً شديدة ترتبط بمجموعة من القواعد التي تنظم ظاهرة الإمالة في القراءات القرآنية ، ومن ذلك أنها لدى بعض العرب تمال إذا كان بعدها حرف مكسور، مثل: عابد وعالم ومساجد ومفاتيح، قال سيبويه: (أرادوا أن يُقَرِّبوها – الألف - منها "، وهي في قراءة أبي عمرو بن العلاء تقع قبل الراء المكسورة: النار - الأبرار - الأبصار - الأنصار ، كما ترتبط بالألف ذات الأصل اليائي في مثل ما نقرأ في قوله تعالى : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بإمالة ألف ﴿مَجْرِىٰهَا﴾ لتصبح ﴿مجريها﴾ بالكسرة التي ترسم صوتيا (e) لا (i) ، وهي الكسرة الخالصة»[١٤].

ب- مُؤَخَّر اللسان :

نبه الدكتور إبراهيم أنيس وجماعة من الدراسيين المحدثين إلى إمالة الفتحة نحو الضمة فقال: (كما يمال الفتح إلى الكسر. قد يمال أيضا الضم)[١٥] وقديما نص على ذلك ابن جنى[١٦].

(١٤) في التطور اللغوي (٢١١).

(١٥) في اللهجات ت العربية / ٦٥

وانظر: اللهجات العربية في التراث (١/٢٨٣، واللهجات فى الكتاب لسيبويه (٣/٧٣).

(١٦) سر صناعة الإعراب (١/٥٩)، تحقيق السقا وزملائه.

١- يمثل المقياس رقم (٥) حال أقصي اللسان دون أن يتحرك حيث يكون قارا فى قعر الفم، وأن أصابه نوع من التحفز استعدادا لنطق الأصوات بإشارة من المخ . وينتج لنا أقصى اللسان في تلك الحال الفتحة المفخمة المصاحبة لحرف مستعل، كما في فتحة خاء (ختم) وفتحة غين (غفر) وفتحة قاف (قضى)، كما ينتج لنا الألف المفخمة وهى المصاحبة لحرف مستعل (مفخم) كما في: قام، خاف، غاب- قائم، خائف، غائب.

٢- يمثل المقياس رقم (٦) وضع أقصى اللسان عندما يتحرك إلى أعلى قليلا عن طريق رفع الفك السفلى.

وينتج لنا في هذه الحال الفتحة القصيرة التي تصاحب أحد حروف الإطباق (أعلى حروف الاستعلاء)، كما في: صام - ضاق - طاب - ظلم، كما ينتج لنا الألف المفخمة التي تميل إلى الواو كما في قراءة كلمات: (الصلوة - الزكوة - الحيوة - النجوة - الغدوة - الربوة - مشكوة - منوة) في رواية ورش عن نافع. يقول مكي عن هذه الألف: يخالط لفظها تفخيم يقربها من لفظ الواو[١٧]. ويقول في موضع آخر: وبها قرأ ورش: الصلاة، ومصلى، والطلاق، وبظلام. ويضيف ابن الجزرى إليها: شبهها من كل لام مفتوحة جاورت حرف تفخيم (إطباق)[١٨].

فقد نُحِيَتْ هذه الألفات نحوَ الواو على لغة أهل الحجاز. وقد عدّ أبو حيان في (ارتشاف الضرب) من الحروف المتنوعة المستحسنة في

(١٧) الرعاية (١٠٩).
(١٨) النشر (٢/١١١).
وراجع: لغة قريش (٤٧).

ألسنة العرب حرفا بين الألف والواو يسمى ألف التفخيم، كما في الصلوة، والزكوة، والحيوة، في لغة الحجاز، وكذلك رسموها بالواو في الكتابة. وجاء في (المحتسب) في تعليل كتابة (الربا) بالواو في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]: أنه فخم الألف انتحاءً بها إلى الواو، التي الألف بدلا منها على حد قولهم: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ... وكأن القارئ بيَّن التفخيمَ فَقَوِيَ الصوتُ. وفى (شرح الشافية): أن كَتْبَهم لهذه الكلمات بالواو: على هذه اللغة، أى لغة الحجاز[١٩].

هذا، وقد جاء الدرس الصوتي الحديث يؤيد ما ذهب إليه جمهور علماء التجويد من أن الحركات وحروف المد والألف خاصة تتبع ما قبلها في الترقيق والتفخيم.

فهذا أحد دارسي الأصوات العربية من المعاصرين يقول: فالفتحة مثلا قد تكون مفخمة وقد تكون مرققة، وقد تكون بين التفخيم والترقيق. فهي مفخمة مع أصوات الإطباق، وهى: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء. وهى في الحالة الوسطي بين التفخيم والترقيق مع القاف، والعين، والخاء، ولكنها مرققة في المواضع الصوتية الأخرى. فلدينا بحسب النطق الفعلي ثلاثة أمثلة للفتحة أو ستة حين نأخذ الطول والقصر فى الاعتبار، إذ إن الفتحة الطويلة يعتريها ما يعترى الفتحة القصيرة من التفخيم وإخوته. وهذا الشيء نفسه يُطَبَّقُ على الكسرة والضمة (طويلةٍ وقصيرةٍ): فهما مُفُخَّمَتان مع أصوات الإطباق - وبين التفخيم والترقيق

(١٩) اللهجات العربية في التراث (١/٢٧٩).

مع القاف، والغين، والخاء، ولكنهما مرققتان مع الأصوات الأخرى. فلدينا ثلاث كسرات (أو ست)، وثلاث ضمات (أو ست). والحركات العربية إذًا بهذا الاعتبار السياقي: تِسْعٌ، أو ثمانِيَ عَشْرَةَ[٢٠].

ويزيد الدكتور الجُنْدي هذا النوع من الإمالة توضيحا، فيقول: "علي أننا نجد نوعا آخر من الإمالة يختلف عما سبق.

فكما رأينا فيما سبق إمالة الفتح إلى الكسر: فإننا نرى إمالة الفتح إلى الضم فيما يقول ابن جني: «وأما ألف التفخيم: فهي التي نجدها بين الألف والواو نحو قولهم: سَلَامُ عليك، وقام زيد .. وعلى هذا كتبوا: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ بالواو، لأن الألف مالت نحو الواو». وهي كحرف (o) في اللغة الفرنسية. وحكى ابن جني عن قطرب: «أن أهل اليمن يقولون: الحيوة، فهذه الواو بدل من ألف حياة، وليست بلام الفعل من (حيوت)، وكذلك يفعل أهل اليمن بكل ألف منقلبة عن واو كـ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾». ويظهر أن هذا النوع من إمالة الفتحة إلى الضمة كان موجودا في الحجاز أيضا، بدليل ما جاء في(الشافية): أن كَتْبهم لهذه الكلمات بالواو على هذه اللغة، أي لغة الحجاز. ومن المعروف أيضا: أن الكتابة العربية قد أُخِذَتْ من النَّبَطِيَّة التي كانت تُكْتب فيها بالواو، وكذلك في الكتابات العربية الجنوبية. وقد كُتبت هذه الكلمات في المصحف بالواو، والذين كتبوه من قريش، والكتابة مرآة للهجاتِ كاتبيه، وهذا ما جعل الدّاني يقول: «رسموا في كل المصاحف

(٢٠) الأصوات، للدكتور كمال بشر (١٩٢-١٩٣).
وانظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد (ص: ٥٠٥).

الألف واوا في أربعة أصول مطردة، وأربعة أخرى متفرقة: فالأربعة الأصول هي: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وَقَعْن. والأربعة أحرف المتفرقة هي قوله: (بالغدوة) (كمشكوة) (ومنوة) (النجوة) فكأنهم توهموا – لشدة التفخيم عندهم – أنها واو، فرسموها كذلك.

وأرجح أن هذا النطق كان موجودا أيام النبي عليه السلام، لذلك كتبت بالواو في المصحف، ثم أصابها بعض التطور، فتحولت من واو إلى فتحة ممدودة. ومما يدل على وجود مثل هذا في لهجات اليمن أيضا: ما يذكره بعض المستشرقين من أن الأسماء العربية المنتهية بـ (ون)، مثل: خَلْدُون وزيدون - وهي كلها لأشخاص يمنيِّي الأصل- يُرَجَّح أنها أسماء منتهية بأداة التعريف اليمنية (آن)، ثم أمالها اليمنيون على طريقتهم، وكتبها العرب الشماليون بطبيعة الحال (ون) في إمالتهم نحو الواو»[٢١].

٧- يمثل المقياس رقم (٧) أقصى اللسان فقد ارتفع قليلا عن الوضع السابق (٦)، وينتج لنا في هذه الحال الضمة العربية القصيرة(العادية) كما في ضمة (كاف كُتب)، كما ينتج لنا الواو العربية المعروفة في مثل: يقول، يعول.

٨- يمثل المقياس رقم (٨) وضع أقصى اللسان عندما يصل في ارتفاعه إلى أقصى درجاته دون أن يحدث حفيفا (احتكاكا) مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، وينتج لنا في هذه الحال الضمة القصيرة والواو

(٢١) اللهجات العربية في التراث (١/٢٨٣-٢٨٤).

الضيقتين، وهما غير موجودتين في العربية، وإن وجدتا في غيرها من اللغات.

يقول الدكتور/ شاهين تلخيصا لما سبق من هذه المقاييس الأربعة: "ألف التفخيم هي التي كان ينطقها أهل الجاز في كلمات لا يتطلب سياقها الصوتي تفخيما، فنحن مثلا ننطق الفتحة مفخمة بعد أصوات ص - ض - ط- ظ- ق - غ- خ- ر- ثم اللامِ في لفظ الجلالة إذا كان الانتقال إليها من فتح أو ضم، وفيما عدا هذه الأصوات تنطق الفتحة مرققة فنقول (لا - كان - بيات) بألف مرققة دائما، بيد أن أهل الحجاز كانوا يفخمون الألف في كلمات معينة مثل: الصلاة – الزكاة – الحياة – مشكاة، ولعل مما يدل على النطق المفخم للألف في هذه الكلمات أنها رسمت في المصحف العثماني بالواو لا بالألف تمييزا لها عما التُزِم فيه الترقيق في لسان أهل الحجاز، فترسم الألف المفخمة هكذا: الصلوة - الزكوة - الحيوة - مشكوة ، على حين أن الألف غير المفخمة لا ترسم في المصحف العثماني، فتكتب كلمات: الكِتب - الصدقت - الأنعَم، بدون ألف، إلا ما نجده من رمز إضافي في صورة الألف الصغيرة" (٢٢).

٩- المقياس رقم (٩) حركة ضيقة للسان، يمثل ميل وسطه تجاه أقصاه، ويُنْتِج لنا في هذا الوضع حركةً ضيقة جدا حيث ينتقل اللسان من ضيق إلى أضيق، وتتمثل هذه الحركة في ميل الكسرة نحو الضمة في ثلثي المسافة بين المقياس رقم (١) والمقياس رقم (٨) تقريبا، بحيث تكون إلى رقم (٨) أقربَ منها إلى رقم (١)، ومن هنا وجه صعوبتها، وذلك

(٢٢) في التطور اللغوي (٢١١-٢١٢).

في مثل: قيل - بيع - غيض - سيق - جييء - حيل - سييء - سيئت، فيما يعرف بالإشمام (أي إشمامِ الكسرةِ صوتَ الضمة) لدى النحويين والقراء، كالكسائي وورش في جميع ذلك، وابن ذكوان في: (حيل، وسيق، وسيئت) فقط، ونافعٍ وأبي جعفر في: (سيئ وسيئت) فقط[٢٣].

هذا، والإشمام فصيح، وإن كان قليلا. وقد قرئ به في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٣]. فقد قرأ الجمهور (سيء) بكسر السين، وأشمها نافع، وابن عامر، والكسائي، وهكذا قوله: ﴿سِيٓئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]: أشمها الضمَّ أبو جعفر، والحسن ورجاءُ بن حَيْوَةَ، وشَيْبة، وابن وثّاب، وطلحة، وابن عامر، ونافع، والكسائي[٢٤].

وقد عُزِيَ الاشمامُ الى كثير من قيس وأسد وعُقَيْلٍ ومَنْ جاورهم[٢٥].

وعلى هذا: تقع الحركات العربية القصيرة الثلاث: الفتحة والكسرة والضمة، ومعها الحركات الطويلة الثلاث: الألف المرققة والياء المَدِّيَّة والواو المَدِّيَّة على المقاييس: ١، ٤، ٧بالترتيب على وجه الدقة

(٢٣) سر صناعة الإعراب (١/٥٩)، تحقيق: السقا وزملائه، والنشر (٢/٢٠٨).
وانظر: الإمالة في القراءات واللهجات العربية (٢٦).

(٢٤) البحر المحيط (٧/١٥١).
وانظر: المغني في تصريف الأفعال (٢٠٢-٢٠٣). انظر: اللهجات العربية نشأة وتطورا (١٩٦)، بتصرف يسير.

(٢٥) الإتحاف (١/١٢٩).
وانظر: من تراث لغوى مفقود (٧١)، واللهجات العربية فى الكتاب لسيبويه (١٦٩-١٧٠).

والتحديد. أما المقياسان ٦، ٧ على الترتيب فمقاييس فرعية تمثل الميل بأقصى اللسان من الفتحة والألف المفخمتين تجاه الضمة والواو.

كما يمثل المقياس رقم (٩) الميل من الكسر إلى الضم، أما المقياس٣، و٢ على الترتيب فيمثلان الميل بوسط اللسان من الفتحة والألف المرققتين تجاه الكسرة والياء.

يقول الدكتور شاهين في هذا الخصوص: «عَرَفَتْ العَامِّيَّةُ مُصَوِّتَ الضمة الممالة (o) كما عَرَفَتْ الفتحةَ الممالة (e) قصيرتين ، وطويلتين. والأولى لم تعرفها الفصحى إلا في المقطع الطويل المقفل حين يكون فعلَ أمر من الأجوف، مثل: قُمْ، وصُمْ، إذ ننطقهما:qom- som ، ولكن الثانية موصوفة في أصوات الإمالة بأنها الألف الممالة إمالة شديدة، وهو وصف يُشْعِرُ بأن العربية القديمة عرفت ألفا ممالة إمالةً خفيفة، وهو مذهبٌ أو طريقةٌ في نطق الإمالة القرآنية»(٢٦).

وعلى ذلك: فما يسمى (تضجع قيس) يمثله المقياس رقم (٢)، وهو ما عُرِفَ لدى علمائنا قديما وحديثا بالإمالة عند الإطلاق، أي: دون تحديد لنوعها أو درجتها.

ونخلص من كل ما تقدم إلى أن الإمالة قسمان :

أ- أصلية وهي نوعان :

١- **وسطى**، أو بين بين، وهي عبارة عن انتقال وسط اللسان من المقياس رقم (٤) إلى المقياس رقم (٣).

(٢٦) في التطور اللغوي (٢٢٨).

٢- **كبرى أو شديدة**، وهي عبارة عن انتقال وسط اللسان من المقياس رقم (٤) إلى المقياس رقم (٢).

وهذه هي المقصودة عند الإطلاق، وتمثل تضجع قيس، كما سبق.

ب- فرعية، وهي ثلاثة أنواع :

١- خفيفة، وتتمثل في الانتقال بأقصى اللسان من المقياس رقم(٥) إلى المقياس رقم(٦).

٢- شديدة، وتتمثل في الانتقال بأقصى اللسان من المقياس رقم (٥) إلى المقياس رقم (٧).

٣- ضيقة، وتتمثل في الانتقال بوسط اللسان من المقياس رقم (١) إلى المقياس رقم (٨) حيث يلتقيان عند المقياس رقم (٩). وقد أتيْنا لكلٍّ بالأمثلة المناسبة.

هذا، ولابن جني كلام يُصَدِّقُنا في هذا الاستنتاج، حيث يذكر أن هناك حركاتٍ محضةً أصلية، هي: الفتحة والكسرة والضمة، وإشباعُها يُحْدِثُ الألفَ والياءَ والواوَ، كما أن هناك حركاتٍ فرعيةً هي:

١-الفتحة مشوبة بالكسرة، كما في: عالم، وعايد.

٢- الفتحة مشوبة بالضمة، نحو: قام، صاغ، والصلاة، والزكاة.

٣- الكسرة مشوبة بالضمة مثل: قيل وغيض.

٤- الضمة مشوبة بالكسرة، في نحو: مذْعور وابن بور[٢٧].

ونختم بحثنا بتقرير لأحد الدارسين فيه جهود كل من علمائنا القدامى والمحدثين بالنسبة لظاهرة الإمالة، والفرقُ بين وجهة هؤلاء وأولئك، وذلك إذ يقول: والحق: أن القدامى لم يألوا جهدا - بقدر ما وسعتهم الطاقة - في تحديد هذه الأوضاع، والتنبيه عليها بطرق التعبير.

فهم يقولون مثلا التفخيم (الفتح): نهاية فتح القارئ لفيه بلفظ الحرف، والإمالة المتوسطة، حقها: أن يؤتى بالحرف بين الفتح المتوسط والإمالة الشديدة، والإمالة الشديدة، حقها: أن تُقَرِبَ الفتحةَ من الكسرة والألفَ الساكنة (المدِّية) من الياء من غير قلب خالص ولا إشباع مبالغ فيه، إلى نحو ما جاء في كتاب (النشر) وغيرِه من كتب النحو والقراءات.

ولا يزال الطلبة المُجَوِّدون للقرآن يوصيهم شيوخهم عَمَلِيًّا بملاحظة حركة اللسان والشفتين عند النطق بالفتح والتفخيم والإمالة.

وهناك فروق ظاهرة بين وصف القراء لظاهرة الإمالة، ووصف المحدثين لها، فالقراء ينبِّهون على المَعِيب وغير المعيب في أداء الفتح والإمالة، على حين أن المحدثين يصفون هذه الظواهر ويسجلونها معترفين بها جميعا من غير تفريق[٢٨].

(٢٧) سر صناعة الإعراب (١/٥٨-٥٩)، السقا وزملائه.
وانظر: الإمالة في القراءات واللهجات العربية (٢٤)، واللهجات العربية نشأة وتطورا (١٩٤-١٩٨).
(٢٨) الإمالة في القراءات واللهجات العربية (٤٦).

بقيت كلمة أخيرة، هي: أن ظاهرة الإمالة بأنواعها ودرجاتها مما يُتَوَارث في النطق جيلا عن جيل، أو يتعلم على الحذاق المتقنين، ويحاول الرسم الإملائي والقرآني أن يشير إليها ببعض العلامات المرشدة تسهيلا على الناطقين والمتعلمين كما أن النطق بها لا يغير من معنى الكلمة، فهي مجرد تنويع للأداء فقط.

يقول الدكتور الجُنْدي: كانت الكتابات العربية خالية من علامات الإمالة الخطية، والسبب في ذلك: أن هذه اللهجات وصلتنا مكتوبة لا منطوقة، ولاشك أن الخط الذي كتبت به المصاحف في القرن الأول الهجري كان خاليا من النقط والتشكيل وعلامات الإمالة، ثم هذا التاريخ الطويل لعلامات الإمالة. فقد كانت ترسم ياء في آخر الكلمة، أو ألفا تحت الحرف الممال، أو نقطة حمراء، أو كسرة علامة للإمالة، أو نقطة خالية الوسط كما في المصحف المصري (١٣٣٧هـ)، أو كتابة كلمة (مل) فوق الحرف الممال[٢٩].

كما أن ظاهرة الإمالة عموما ما زالت تسمع على ألسنة سكان وسط الجزيرة العربية حتى الآن، وإن تمثلت الإمالة الشديدة أو الكبرى (التضجع) في لهجة أهل لبنان على وجه الخصوص إلى يومنا هذا.

وقد حكى زميل لي أن كلمة (الله) في أذان المؤذنين في بريدة بالسعودية كانت تشد انتباهه بسبب الإمالة الشديدة التي فيها.

يقول الدكتور الموافي في هذا المضمار: واليوم تنتشر هذه الظاهرة في كثير من أصقاع العالم العربي، وهذا أمر له دلالته التاريخية.

---

(٢٩) اللهجات العربية في التراث (١/ ٢٩١- ٢٩٢).

ففي مصر أجرى الدكتور عبد الفتاح شلبي استفتاء لمعرفة مدى شيوع الإمالة في مصر، وانتهى إلى أنها تكثر في محافظات: المنوفية، والبحيرة، وكفر الشيخ مما يلي البحيرة، وما جاور ذلك من محافظة الغربية.

وهي متوسطة في محافظة الغربية بوجه عام، وبعض مناطق كفر الشيخ، وتتراوح بين الإقلال والتوسط في محفظات الوجه القبلي.

أما في بلاد المغرب العربي: فإن إمالة الفتحة الطويلة يميز بعضَ اللهجات مثل لهجات: طرابلس، والساحل التونسي، وجنوب سكيكدة، وصحراء الجزائر. وفي بلاد الشام: تنتشر فيها الإمالة في لبنان وسوريا، وقد سمعت زميلا حلبيا ينطق كلمة (خاتم) kheetim دون اعتداد بوجود حرف الاستعلاء.

وفي بلاد اليمن: نجد أهل صنعاء يُمِيلون ما قبل هاء التأنيث، إلا إذا كان حرف حلق، أما ما جاورهم من القبائل فإنهم لا يستثنون شيئا فيميلون حتى فتحة حرفَ الحلق قبل هاء التأنيث.

وفي العراق: تنتشر الإمالة انتشارا عجيبا؛ ولعل هذا راجع لمجاورة أهله لمنطقة نجد، وهجرة كثير من قبائل نجد إليه[٣٠].

(٣٠) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث (١٧٥-١٧٦).

خلاصة البحث

تتمثل خلاصة هذا البحث (تضجع قيس .. في ضوء علم اللغة الحديث) في: أن ظاهرة التضجع في نطق هذه القبيلة البدوية التي كانت تجاور تميما هي ما يعرف لدى علمائنا القدامى والمحدثين على السواء بالإمالة الشديدة أو الكبرى، ويمثلها المقياس رقم (٢) على مربع (دنيال جونز) الشهير لأصوات الحركة.

وبذلك نكون قد أضفنا مصطلحا آخر هو (التضجع) إلى مصطلحات الإمالة المعروفة في علمي التجويد والقراءات خاصة ، وعلم العربية على وجه العموم.

المراجع

١- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد محمد البنا، تحقيق: د/ شعبان محمد إسماعيل، ط الأولى، عالم الكتب بيروت سنة ١٩٨٧م.

٢- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: د/مصطفى النحاس، مطبعة النسر الذهبي، القاهرة – سنة ١٩٨٦م.

٣- الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٨م. نشر: مؤسسة الخانجي بمصر.

٤- الإمالة في القراءات واللهجات العربية، د/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي، طبع ونشر: نهضة مصر، القاهرة ط الثانية – سنة ١٩٧١م.

٥-أصوات اللغة العربية، د/ عبد الغفار هلال ، ط الثانية ١٩٨٨م.

٦- أصوات اللغة العربية، د/ محمد حسن جبل، ط الثانية سنة ١٩٩٣م.

٧- الأصوات اللغوية، د/ إبراهيم أنيس، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٩٢م.

٨- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري، نشر : دار الفكر، بيروت، ط الأولى سنة ١٩٩٤م.

٩- التجويد والأصوات، د/ إبراهيم محمد نجا، مطبعة السعادة، القاهرة سنة ١٩٧٢م.

١٠-ترتيب القاموس المحيط، الطاهر أحمد الزاوي، ط الرابعة، عالم الكتب بالرياض، سنة ١٩٩٦م.

١١- الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث، د/ الموافي الرفاعي البيلي، ط الأولى ، سنة ١٩٩٢م.

١٢- خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، ط الأولى، سنة ١٩٨٣م، نشر: الخانجي بالقاهرة.

١٣- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق : محمد علي النجار، ط الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

١٤- دراسات في تاريخ العرب القديم، د/ محمد بيومي مهران، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط الثانية١٩٨٠م.

١٥- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، نشر دار الحديث بالقاهرة ١٩٧٣م.

١٦- دراسات لغوية ، د/عبد الصبور شاهين، ط الثانية – مؤسسة/الرسالة سنة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

١٧- دستور الأخلاق في القرآن، د/ محمد عبد الله دراز، تعريب د/ عبد الصبور شاهين، ط مؤسسة الرسالة، الثانية ١٩٩١م.

١٨- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د/ عبد الفتاح البركاوي، ط الأولى ١٩٩١، نشر: دار المنار بالقاهرة.

١٩- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب القيسي، دار عمار، عمان، الأردن، ط الثانية ١٩٨٤م.

٢٠- سر صناعة الإعراب: أبو الفتح عثمان بن جني تحقيق: السقا وآخرين ط الحلبي، الأولى ١٩٥٤م.

٢١- سر صناعة الإعراب: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق د/ حسن هنداوي، نشر دار القلم، دمشق، ، ط الأولى ١٩٨٥م.

٢٢- شرح التسهيل، ابن مالك، تحقيق: د/ عبد الرحمن السيد، د/ محمد بدوي المختون، ط الأولى سنة ١٩٩٠م.

٢٣- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الإستراباذي، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢م.

٢٤- العرب قبل الإسلام، د/ خليل يحيى نامي، نشر: دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٦م.

٢٥- العربية خصائصها وسماتها، د/ عبد الغفار هلال، ط الرابعة ١٩٩٥م.

٢٦- علم الأصوات (علم اللغة العام، القسم الثاني)، د/ كمال بشر ، ط السادسة، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٠م.

٢٧-علم الصوتيات، د/ عبد الله ربيع، د/ عبد العزيز علام، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط الثانية، سنة ١٩٨٨م.

٢٨- فصول في فقه العربية د: رمضان عبد التواب ط الثالثة ١٩٨٧م ط مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٢٩- في التطور اللغوي، د/ عبد الصبور شاهين ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م، طبعة مكتبة دار العلوم بالمبتديان – القاهرة.

٣٠- في اللهجات العربية، د/ إبراهيم أنيس، ط الرابعة سنة ١٩٧٣م، نشر: الأنجلو المصرية.

٣١- الكتاب لسيبويه، ط الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٢- لغة تميم ، د/ ضاحي عبد الباقي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط الأولى سنة ١٩٨٥م.

٣٣- لغة قريش، مختار سيد الغوث، النادي الأدبي بالرياض، ط الأولى سنة ١٩٩٢م.

٣٤- لغة هذيل د/ عبد الجواد الطيب، بدون تاريخ.

٣٥- لهجات العرب، أحمد تيمور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الأولى سنة ١٩٧٣م.

٣٦- اللهجات العربية.. بحوث ودراسات، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة ٢٠٠٤م جمع وإعداد: ثروت عبد السميع، المحرر بالمجمع، مراجعة د/ محمد حماده، إشراف د/ كمال بشر.

٣٧- اللهجات العربية في التراث، د/ أحمد علم الدين الجُنْدي، ط الدار العربية للكتاب، ليبيا، الأولى سنة ١٩٨٣م.

٣٨- اللهجات العربية في(الكتاب) لسيبويه، صالحة راشد غنيم، نشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط الأولى سنة ١٩٨٥م.

٣٩- اللهجات العربية نشأة وتطورا، د/ عبد الغفار هلال، ط الثانية ١٩٩٠م .

٤٠- مجالس ثعلب (أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب)، تحقيق/ عبد السلام هارون، ط الثانية، نشر: دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٩م.

٤١- المستويات اللغوية في لهجة قيس، د/ حسن سيد فرغلي. مطبعة الوفاق الحديثة بأسيوط، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م .

٤٢- معجم قبائل العرب، عمر رضا كحالة، ط الخامسة، نشر: مؤسسة الرسالة ببيروت، سنة ١٩٨٥م.

٤٣- المفصل.. في تاريخ العرب قبل الإسلام، د/ جوده على، ط الثانية، سنة ١٩٩٢م.

٤٤- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط الثانية، بدون تاريخ.

٤٥- المغني في تصريف الأفعال، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، ط العهد الجديد سنة ١٩٥٥م.

٤٦- مناهج البحث في اللغة د/ تمام حسان، ط دار الثقافة، الدار البيضاء سنة ١٩٧٩م.

٤٧- من تراث لغوي مفقود لأبي زكريا الفراء، د/ احمد علم الدين الجندي، طبع ونشر جامعة أم القرى، سنة ١٤١٠هـ .

٤٨- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.